دير القديس أنبا مقار

برية شيهيت

مقالات تصلح للخدام والشباب

المقالة الخامسة في:

العلاقات الروحية (١)

المسيحي في المجتمع

الأب متى المسكين

كتاب: المسيحي في ا تمع.
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى حتى الرابعة من سنة ١٩٦٨ – ٢٠٠٧
الطبعة الخامسة: ٢٠١٢
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون
ص.ب: ٢٧٨ القاهرة
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩٩١/٧٤٤٦
رقم الإيداع الدولي: ISNB 977-00-2.31-1
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

يطلب من:
دار مجلة م ـ رقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

المحتويات

مقدمة

• كان العالم فيما مضى لا يتغير عن شكله إلا مرة واحدة في كل قرن تقريباً، فكان كل أربعة أجيال معاً تتعاون لتحمل آثار هذا التغيير، وكان الإنسان لا يكاد يشعر بالتغيير وإنما يسمع عنه. أما الآن فالعالم يستهدف لتحولات هائلة شديدة الجرأة سريعة لا تتجاوز في انسلاخها الكلّي أكثر من ربع قرن، فأصبح على كل جيل بمفرده أن يعاني عبء هذه التحولات كلها في فكره، ومزاجه، ووجدانه، وخبراته، حتى وفي أكله وشربه، ويرى بعينيه كيف تتداعى كل أسس الثقافة التي رسخت عليها حياته، وكيف تنهار المُثُل العليا وتنهزم الأنظمة المستقرة في أعماق الشعور واللاشعور.

وقلَّ من المثقفين بل وحتى العلماء من يستطيع أن يلاحق هذه التحولات. فالمدة التي يقضيها المعلّمون لتحويل الاختراعات والمستحدثات والنظريات الجديدة إلى علم يدرس، أطول بكثير من المدة التي أصبح يستغرقها العلماء في الاختراعات والكشوف الجديدة المذهلة. و لذا كُتب على الأجيال برمتها أن تظل تعاني التغيير دون اللحاق بفهمه.

• ومن غير المعقول أن نطالب الدين أو الحياة الروحية أن تجاري مثل هذه التحولات أو حتى تتوافق مع سرعتها، لأن طبيعة تقدم العلم غير طبيعة تقدم الدين، فالعلوم والثقافات **تتقدم عن طريق تحولات** جذرية تتم على أساس إحلال نظرية أكمل محل نظرية أضعف جرياً وراء حقيقة علمية تبدو كاملة ثم يظهر نقصها على طول المدى وإلى الأبد.

أما في الدين، فالتقدم الروحي يتم على أساس حقيقة إلهية أُعلنت مرة

إعلاناً كاملاً: «قد أُكمل» (يو ١٩: ٢٨)، وليس أمام الإنسان بعدئذ إلا **التعمق لبلوغ هذه الحقيقة** عبر أسرارها.

• لذلك، فالتجديد في العلم غير التجديد في الدين تماماً، لأن **التجديد في العلم يشمل نبذ النظريات العتيقة.** أما التجديد في الدين فهو سـ ـيظل يشمل **استيعاب وتعمق التجربة الروحية الأولى هي بعينها**، أي حقيقـ ـة التجسد والصلب والقيامة ويوم الخمسين، إلى أبد الآبدين.

• ولكن في نفس الوقت لابد من تقابل يتم بين جري العلم وتعمق الدين. فالتحولات الجذرية التي يضطلع ـا العلم في سرعته الهائلة سوف تستنـ ـزف جبروت العقل ليقف أخيراً عاجزاً عن الحركة، حينما يكتشف بآن واحد لا ـائية الحقيقة ولا ـائية نقص العقل البشري، ثم لا ـائية الخسارة الـ ـتي هـ ـو متورط فيها! وفي مرارة الواقع وقلقه سيواجه نفسه وحينئذ يتطلـ ـع إلى الله في سموه ... وإذ بنا مرة أخرى إزاء ذلك الرجل الأوروبي يظهر في الرؤيا لبولس ويقول له: «اعبر إلى مكدونيا وأعنا» (أع ١٦: ٩).

وعلينا منذ الآن يقع عبء هذا النداء ...

✠✠✠

موقف المسيحي من ا تمع، حسب متطلبات العصر، هـ ـو بالحقيقـ ـة موقف دقيق.

فلكي يؤدي المسيحي رسالته داخل ا تمع يلزمه أولاً أن يقبـ ـل هـ ـذا ا تمع بل يحبه، ويحبه بالرغم مما فيه من تيارات خطيرة وشر وفساد قد لا توافق الذوق ولا الضمير المسيحي ... كما «أحب الله العالم حتى بذل ابنه

الوحيد ... » (يو ٣: ١٦).

ثم يلزمه أن يكون قد استوعب المسيحية كخبرة إيمانيـة، لا كنظريـة لاهوتية، ولا كدرس في مدارس الأحد، ولا كمهنة جاز امتحا ا. وهـذا يعني أن يكون مستعداً أن يعطي تغييراً وتجديداً روحيا للمجتمع كما أخذه هو وكما عاشه لنفسه، على أساس وجود الله كفاعل حي، وعلى أساس وثيق من وصية الإنجيل وخبرة الآباء ...

كذلك، فإن المسيحي لا يستطيع أن يؤدي رسالته في ا تمع إن هو نسي ما هو العالم اليوم، أو إن هو تصدى لتياراته دون خبرة روحية ونعمة وإلهـام تغنيه عن خبرة تشخيص أمراض ا تمع على أساس متين من العلم، حقا إنـه غير مطلوب من المسيحي أن يكون دائماً عالماً أو متثّقفاً بـالعلوم الدنيويـة، ولكن المفروض أن لا يكون باغضاً للعلم أو مزدرياً بالثقافة، وهذا لا يكـون بمجرد التظاهر، وإنما ينبع عن تجربة روحية ناجحـة واسـتنارة. والإنـسان الروحي الراسخ، مهما كان أُميا، لا يغض الحقائق العلمية ولا يتضايق مـن الفلسفة ولا يستهين بالفنون والأدبيات وكافة الثقافات. لأن التجربة الروحية تسمو بكافة المعارف لتبلغ ا أقصى ما يمكن من الخير.

وصحيح أن المعرفة الروحية وحقائق الإيمان ومناهج اللاهوت لا تحتمل التطور كما يتطور العالم في علومه وثقافاته، ولكن منهج التلقين الروحـي وتسليم الخبرات الإيمانية لا يمكن أن يتجاهل مستوى الجيل الثقافي، فقـد فتحت آذان العامة على أصوات الفلسفات النقدية وعلوم النفس وتحاليلها، فأصبح على من يريد أن يتفاعل مع هذا ا تمع روحيا، ليرفع عنه أوهـام النظريات التي تغلغلت في تفكيره، أن يكون دارياً بطرائق تفكير الـشباب

ومنطقهم ليرد عنهم حير م وقلقهم!

وليس من المفروض أن يكون الإنسان المسيحي دائماً في وضع المعلم أو القائد لكي يؤثّر في ا تمع ويقوده. فقد يكفي أن يكون المسيحي منفتحاً للمجتمع منفعلاً به، على أساس روحي، بمعنى أن يكـون إيجابيـا لكـل الظروف والملابسات والأشخاص، يستطيع أن ينتفع من الظروف المعاكسة ويتفاهم مع الأشخاص السلبيين. فهذا التفاعل الإيجابي كفيل أن يـؤثّر في ا تمع بالقدوة ربما أكثر مما يقدمه بالتعليم والقيادة المباشرة. ولكن لعـل أهم ما يعوز الإنسان المسيحي في علاقاته با تمع، هو قدرتـه المـستمرة لتحويل خبرته مع الآخرين وخبرة الآخرين معه إلى مفهوم روحي، بمعـنى أن يكون ذا قلب مفتوح الله يتسمع إليه عن طريق الخبرات اليومية فيتقبـل منه الإلهام والتوجيه من صميم الحوادث العادية وغير العادية. هـذا هـو التحول من الحياة حسب الجسد إلى الحياة حسب الروح. فإذا لم يملـك الإنسان هذه القدرة، فإنه يستنـزف عمره بدون فائدة تـذكر، ويعـسر عليه جدا أن ينقل شيئاً روحيا للآخرين، ولعل هذه النعمة هـي أعمـق أسرار الحياة.

القمص متى المسكين

الفصل الأول

في العلاقات العامة

التي تربط المسيحي كفرد وككنيسة مع العالم

نظرة الكنيسة نحو علاقتها بالعالم

مرت الكنيسة في عصورها الأُولى ناظرة إلى الكنيسة في مجملها كرسالة من عالم آخر، رسالة غريبة ليس لها موضع على الأرض، وكان ينظَر إليها أ ا عتيدة أن تكمل سريعاً وتنطلق من حيث أتت.

وكان المسيحي يعتبر ذاته أيضاً أنه غريب عن العالم، قد انفصل عنـ ـه، وكعابر سبيل فيه لا يريد أن يتعوق في سفره.

وقد صارت هذه النظرة ضمن الميراث الروحي الذي ورثناه في معرفتنا عن علاقتنا بالعالم كمسيحيين.

وهذه النظرة وإن كانت تستمد أصولها وأسبا ا من الإنجيل، بـ ـل وإن كانت قد ثبت صحتها فعلاً لدى الذين طبقوها بحرفيتها فعبروا مـ ـسرعين وخلصوا وكسبوا الحياة الأبدية، إلا أ ا **إذا أُخذت كتعليم مطلـ ـق بـ ـلا شروط، فإ ا تسيء إلى الكنيسة وتسيء إلى العالم معاً.**

فالكنيسة بالحقيقة غريبة في تعليمها وأهدافها بل وغريبة في طبيعتها عن العالم، **ولكنها وجِدت ولا تزال موجودة من أجل العـ ـالم!** والكنيـ ـسة موجودة في العالم لتغير العالم.

أما الاختلاف الجوهري القائم بين الكنيسة والعالم فهو أيـ ـضاً ضـ ـمن رسالة الكنيسة وعملها، لأ ا مسئولة أن تجعل هذا الاختلاف لا يتعارض مع خلاص الناس.

وقد علمنا من الإنجيل أن «الله أحب العالم»، أحبه كما كان، وكمـ ـا

هو الآن تماماً ولا يزال يحبه أيضاً بالرغم مما فيه.

وواضح من مجيء المسيح أن الله وضع على الأرض بيده بل بدمه «**حجر أساس**» كريماً لبناء **ملكوت الله**. والكنيسة هي «الحجر الأساس»، وهو آخذ في النمو بصورة سرية كما تنمو البادرة تحت سطح الأرض أولاً لتظهر فجأة، أو كما يختمر العجين كله بفعل الخميرة **غير المنظور**، أو كما تصطاد الشبكة السمكة تحت سطح الماء. وهذا الملكوت السمائي الذي ينمو على الأرض بصورة سرية، تصنعه الكنيسة وتبنيه كل يوم بحجارة حية خام تنحتها حسب مواصفات خاصة، وهذه الحجارة هي الإنسان العادي، بل هي الإنسان الخاطئ، بل هي الفاجر والأثيم. فهذه هي الخامة الأولية الثمينة جدا التي يصنع الله منها ملكوته بواسطة الكنيسة.

أما المسيحي فهو ملح الأرض، بمعنى أنه ضرورة مطلقة في العالم، يحفظ العالم من الفساد ويعطيه طعمه الإلهي.

ولكن المسيحي بحد ذاته إذا حسبناه بدون العالم، فهو لا يزيد عن كونه حفنة ملح في قرطاس مهمل.

والحقيقة أنه قد ثبت على ممر العصور حتى الآن، من واقع الصراع الذي يعانيه الناس ومن واقع بؤس العالم وحاجته إلى من يرفعه باستمرار من الورطات التي يتردى فيها بسبب مجازفاته، أن الكنيسة ليست رسالة غريبة عنه أبداً، ولا المسيحي عابر سبيل فيه. فالكنيسة في العالم هي بمثابة الرئة التي يتنفس بها العالم من روح الله، وهي ضرورة حيوية فيه، وبدونها يختنق حتماً ويموت. ولكن الكنيسة أيضاً بدون العالم لا يمكن أن تقوم

بعملها، أو بالحري بدون العالم تفقد وجودها وتصبح بدون عمل.

والمسيحي كما قلنا هو الملح الذي يصلِح العـ ـالم، بقدرتـ ـه وسـ ـيرته ومقاومته الإيجابية لعوامل الفساد التي تعمل في العالم بلا هوادة لإفـ ـساده. أما إن فسد الملح ذاته، بمعنى أنه يخضع لروح الفساد الذي يعمل في العالم، فإنه لا يعود يصلح لشيء إلا أن يطرح خارجاً ويداس من الناس.

أسباب فتور العلاقات التي تربط الكنيسة بالعالم

هناك ثلاثة أدوار مرت فيها الكنيسة منذ العصر الرسـ ـولي حـ ـتى الآن، تسببت ضمناً في جعل الكنيسة تفرط في علاقا ا بالعالم، وتطرح عنها تـ ـير مسئوليتها الخطير الذي وضعه عليها المسيح: «اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر ١٦: ١٥)، أي مسئولية يئة ملكوت الله وتغيير روح العالم باستمرار لقبول استعلان هذا الملكوت يوماً فيوماً في صميم الحياة التي يحياها الإنسان، وقبول المسيح ربا وفادياً إعداداً يئه.

وسنعرض هذه الأدوار الثلاثة بمنتهى الاختصار.

الدور الأول:

وهو الإحساس بقرب مجيء الرب واسـ ـتعلان ملكـ ـوت الله سـ ـريعاً: «وكانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال» (لو ١٩: ١١). هذا الإحساس عاشته الكنيسة منذ عصر الرسل، وظلّت تعانيه كثيراً. وقد كتب بولس الرسول رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي لكي يبعـ ـد عـ ـن فكرهم هذا الاعتقاد: «ثم نسألكم أيها الإخوة من جهة مجيء ربنا يسوع

المسيح واجتماعنا إليه أن لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتـ ـاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأ ـا منا أي أن يوم المسيح قد حضر» (٢تس ٢: ١و٢). وهذا الاعتقاد تسبب في إصابة الكنيسة بفتـ ـور مـ ـن جهـ ـة مسئوليتها الأساسية المستمرة الطويلة الأمد من جهة خدمتـ ـها في العـ ـالم وتكميل عملها فيه من أجل ملكوت الله.

وتعليل هذا الشعور الدخيل هو شدة حرارة المـ ـؤمنين وتـ ـشوقهم إلى الانطلاق للوجود مع المسيح، الذي لما لم يجد له متنفساً عملياً من جهتهم بالانطلاق الحقيقي، انقلب في اللاشعور إلى ترجي مجيء الرب وانتظـ ـاره بقلق، مما جعلهم يعتقدون بضرورة استعلان ملكوت الله في الحال، وذلك تعويضاً عن إخفاق تحقيق الحياة الكاملة مع المسيح على الأرض وتـ ـذوق ملكوت الله في صميم الحياة اليومية.

هذا الشعور الذي أصاب الكنيسة الأُولى جعلها تنكمش وتنطوي على نفسها كجماعة منفصلة عن جسم العالم تتوقَّع خلاصاً سريعاً، حتى ولـ ـو كان فيه هلاك للعالم كله.

وظلَّ هذا المزاج الحار القلق المتحيز ضد العالم على أشده حـ ـتى هـ ـدأ قليلاً، حينما بدأت الكنيسة تحس أن رسالتها مربوطة بالعالم بعامل الزمن وقد وضع عليها أن تعبر الأزمنة.

ولكن هذا الشعور المنحرف لم يمنع طبعاً التهاب الذين حـ ـلَّ علـ ـيهم الروح القدس من الانطلاق لتبشير العالم مدة جيلين كاملين نجحت فيهما البشارة في العالم نجاحاً منقطع النظير. إلا أن هذا تم أيضاً بسرعة وعجلـ ـة

شديدة، تحت الإحساس أن الوقت مقصر والملكوت على الأبواب. ولكن سرعان ما أحست الكنيسة بعد ذلك أن خطة الله أطول بالاً وأطول أناة من تقدير البشر؛ فبدأت الكنيسة تفقد إحساسها بضرورة العجلة.

الدور الثاني:

وبمطلع القرن الثالث برز عنصر آخر جعل الكنيسة تدخل مرة أخرى في نفس هذا الشعور، ولكن بإحساس آخر ضد العالم وهو إحساس لا بالغربة فقط بل بالعداوة الشديدة، وذلك بسبب بدء الاضطهاد الذي نظَّمه العالم الوثني ضد الكنيسة ونفَّذه بمنتهى القسوة والإصرار والصبر.

هذا العداء السافر الذي واجهته الكنيسة من العالم الوثني بلغ من الشناعة إلى الدرجة التي جعلت الكنيسة تحدد في اللاشعور موضعها خارج العالم نائياً، وجعل الإنسان المسيحي تحت إلحاح مستمر للخروج من هذا العالم كما من سجن أو فخ منصوب. وقد نشطت تبعاً لذلك حركة الاستشهاد الطوعية بدرجة فائقة للوصف التي ولو أنها خدمت الشهادة للمسيح والإنجيل بصورة ناجحة منقطعة النظير حتى تسببت في انهيار الوثنية، إلا أنها تركت إحساساً عاماً في قلوب المؤمنين بفظاظة العالم وجور الحكومات، مما أسس روح عداوة وبغضة بين الكنيسة والعالم ظلت مترسبة في أعماق اللاشعور كميراث يتسلَّمه الخلف عن السلف من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا. وبسبب هذا الشعور قوي اعتقاد الكنيسة أنها رسالة غريبة عن العالم وغير محبوبة، مع أن مركز العداوة والاضطهاد والقتل لم يكن العالم بل الوثنية التي كانت غريبة عن العالم غربتها عن الكنيسة تماماً.

ولكن هذا الشعور بالعداوة والانفصال عن العالم زاد جدا من انكماش الكنيسة وجعلها تقْصِر أمانتها وحبها وعطفها على أولادها فقط، خلاف ـ اً للإنجيل، وظلّت الكنيسة تروح وتجيء على الإنسان ا روح الساقط على الأرض الغارق في دمائه الذي هو العالم، وهي تجوز مقابله بروح الك ـ اهن واللاوي المتعصب، وبروح الإنسان المتطهر الذي لا يريد أن يتنجس حتى يأكل الفصح!

الدور الثالث:

ومع حركة الاضطهاد والاستشهاد، وفي اتجاه موازي لها تماماً ومتأثر ا نوعاً ما قامت حركة أخرى يمكن أن نعتبرها احتجاجاً صارخاً ضد العالم وحكوماته ومظالمه إنما في مظهر سلمي ومقاومة سلبية من الدرجة الأولى. هذه هي حركة الرهبنة التي انطلق فيها الناس فرادى إلى الجبال والقف ـ ار والبراري يعيشون، بل بالحري يموتون عن العالم، في تبتل مطل ـ ق وعب ـ ادة صامتة والتصاق بالله يفوق العقل.

و ذا تكون الكنيسة قد أخذت أقصى مواقفها السلبية ضد العالم في هؤلاء الأشخاص الذي هجروا العالم ائياً ونبذوه باعتباره موطن الخطيئة والفساد.

وإن كانت الحركة الرهبانية بحد ذا ا عملاً إيجابياً أفاد العالم ج ـ دا، ولا يزال، بل ربما يمكن أن يحسب هذا العمل أقوى ما قدمته الكني ـ سة للع ـ الم كصورة حية ناطقة للإنجيل وامتداد تاريخي حي للمسيح نفسه، ثم للرس ـ ل والشهداء؛ إلا أن الحركة الرهبانية بسبب أ ا حسبت هروباً من العالم وعزوفاً عنه وازدراءً به بصفته مصدراً للشر والهلاك، صارت (الرهبنة) م ـ ن ناحي ـ ة أخرى طعنة شديدة في ظهر العالم أصابته بجرح بليغ ممثلاً في الأشخاص الذين

لا يستطيعون اللحاق بالرهبنة ويريدون الخلاص وهم في العالم!!

هذا بالإضافة إلى أن التعاليم التي صدرت عن الحياة الرهبانية من ضرورة التجرد والزهد وأعمال النسك والتأملات المتركِّزة في الأخرويات وانتهاء الدهر، جعلت صورة العالم مرة أخرى تذبل جدا وتضمحل في إحساس الإنسان العادي إلى الدرجة التي أصبح فيها يمكن اعتبار العالم أنه شيء فاسد لا ضرورة من وجوده ولا من استمراره. وهذا في الواقع هو الشعور المقابل للإحساس بسرعة مجيء الرب واستعلان ملكوته. وهذا سهل على المؤمنين من قادة ورؤساء ورهبان الانفلات من الإحساس بضرورة حمل نير مسئولية الحاضر الزمني بالنسبة للكرازة والخدمة وتغيير العالم وتضميد جراحه وحمل الشعلة أمامه لإنارة طريقه الطويل الطويل جدا. لأن معظم الروحيين منذ بدء الرهبنة حتى اليوم يتحصنون سريعاً في التأمل في الأخرويات ويلوذون بالحياة التصوفية الرؤيوية عوض مواجهة الواقع المؤلم الذي يعشه العالم.

مع أن جهاد الرهبان الأتقياء ونسك المتوحدين في عزلتهم الصامتة المطلقة هو محسوب أنه للعالم أكثر مما هو محسوب لهم!! إذاً، فالخطأ ليس في العزلة عن العالم، ولا في الهروب منه، ولا في النسك الفردي، ولكن الخطأ هو في فصل روح النسك والصلاة عن العالم وتجاهل النساك والمتوحدين لمحنة العالم، مما أساء إلى النسك والعبادة أكثر مما أساء إلى العالم، فالعالم في أشد الحاجة إلى صلوات المتوحدين ودموعهم، والخطاة والأشرار الذين في العالم أحوج إلى صوم الناسك ودموعه أكثر من نفسه! وعلى كل حال فالمتوحد لن يكمل، حتى ولو انطلق إلى السماء راضياً عن

نفسه كل الرضا، فهو سيبقى هناك ينتظر حتى يكمل العالم كله!!

هذه العوامل تآزرت معاً حتى فصلت الكنيسة عن العالم مدة طويلة من الزمان، ربما حتى القرن السادس عشر حينما بدأت حركة الإرساليات لخدمة العالم في كافة الأنحاء، إنما للأسف تحت دوافع اقتصادية وسياسية، ثم تلتها موجة أخرى أكثر أصالة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. ولكن على وجه العموم ظلّت الكنيسة تحمل في أعماقها روح حذر شديد تجاه العالم ما كان أسهله أن ينقلب إلى بغضة وعداوة بسبب ترسبات هذه العوامل الشديدة التي كانت باستمرار لا تزال حية وفعلة في ذهن الكنيسة وضميرها.

أما مشيئة الله وقصده المبارك الذي أعلنه في الإنجيل تجاه خدمة العالم والكرازة له وإنارة الطريق أمامه، فلا تزال معطّلة تنتظر اليوم الذي تنفك فيه الكنيسة من قيودها الموروثة لتشهد للمسيح في كل مكان، وتصلب في كل مكان.

مشيئة الله وقصده المبارك تجاه العالم

+ «هكَذَا أَحب اللهُ الْعالَم حتى بذَلَ ابنه الْوحِيد، لكَي لاَ يهلِك كُلُّ من يؤمِن بِهِ، بلْ تكُونُ لَه الْحياةُ الأَبدِيةُ. لأَنه لَم يرسِلِ اللهُ ابنه إِلَى الْعالَمِ لِيدِين الْعالَم، بلْ لِيخلُص بِهِ الْعالَم» (يو ٣: ١٦و١٧)

الله لم يترك العالم في عجزه وفقره وظلمته، والمسيح لما جاء لم يجلس في الهيكل، كإله، بل انطرح في صميم عجز العالم وفقره ومرضه، وشارك الناس ذُلهم وانسحاقهم وأجاز نفسه تحت ظلمة العالم وروحه الشرير وحقده وعداوته، حتى صلبوه في مهانة فاقت حدود التصور؛ وهو كان راضياً عن كل ذلك، لأنه أحب العالم وأراد أن يخلّصه! المسيح لم يستعف من العالم الشرير الظالم، ولم يقبل أن تعمل له مِظلة على جبل التجلّي، ولا قَبِلَ أن يجعلوه ملكاً.

لذلك لما بدأ يعلّم الناس كيف يخدمون العالم ويحبونه لم يعلّمهم أن يخشوا شره: «ها أنا أُرسلكم مثل حملان بين ذئاب» (لو ١٠: ٣)، ولم يحرضهم أن يخشوا تياراته خوفاً على نورهم من ريح الشر المتجمد فيه؛ بل دعا كل من يؤمن به أن يضع نفسه في مكان التيار على متن منارة في أعلى مكان من دنيا الشر والظلم، حتى ترى أعماله وتفحص بالنور ويراه الجميع ويمجدوا الله. وهذا كفيل أن يحول العالم كله، لو كان للمسيح من يكرز به هكذا في كل مكان!

لقد حدد المسيح دور الكنيسة وعملها في العالم كما يتحدد الملح للطعام، إذ يلزم أن يذوب فيه ويتلاشى عن شكله وكيانه ويترك طبيعته المطهرة تعمل

وحدها. فالكنيسة تصير أداة تمليح حينما تكون مستعدة أن تنتشر في أرجـاء العالم فاقدة لكل ميزة خصوصية، معطية ذاتها عطاءً كليا حتى الموت.

وإن كان الله قد أرسل الروح القدس بمواهب متعددة للكنيسة التي سكبها عليها بغنى، فهذه المواهب ليست لخير المسيحيين ولا لكرامة الكنيسة إنما لخير العالم الموجوع. فالعالم مريض في مواضع كثيرة، وضربته لم تعصب ولم تلين بزيت، وهي من أخمص القدم حتى هامة الرأس، لذلك هو محتـاج لأنـواع مواهب وتخصص في العلاج. من أجل هذا أرسل الله الروح القدس للكنيسة ليشفي العالم: «من له أُذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس» (رؤ ٢: ٧).

العالم بالحقيقة كان في حالة احتضار شديد لأن الـشيطان كـان قـد استنـزف دمه بعبادة الأوثان وفسادها، من أجـل هـذا أرسـل الله روح استشهاد على الكنيسة، فاستطاعت الملائكة أن تجمع دم الشهداء وتنقله إلى جسم العالم الفاقد صوابه حتى استفاق من ضربته المميتة. ولكن لا يزال العالم تعاوده روح الوثنية، لذلك هو محتاج كل يوم في كل مكان إلى نفوس تبذل دمها لتوصل إليه روح الحياة التي للمسيح يسوع!

العالم لا تسكّن آلامه بالكلمات ولا تستأصل أورامه بالعظـات، العـالم يحتاج دائماً إلى فدية، إلى نفوس تموت "كل يوم" لتحفظ شهادة الإنجيل حية حتى تستطيع أن تقبلها النفوس المريضة وتحيا بها. العالم يحتاج إلى نفوس تحترق وتصلَب في آلامها وضيقاتها، دون أن تنـزل إلى مـستوى الأنـين، لتـنير بتمسكها بالله طريق الإيمان أمام المتشككين والجاحدين واليائـسين. العـالم يحتاج إلى قديسين يتقدسون ويتطهرون لا من أجل أنفسهم بل من أجل الذين لا يؤمنون بالقداسة ولا بالطهارة: «لأجلهم أقدس أنا ذاتي» (يو ١٧: ١٩)!

واضح أن المسيح مات ليعيش العالم، ولأن المسيح مات لأجل العالم قام وأقام العالم معه!!

والله وضع الكنيسة في العالم ووهبها روح القيامة، لتموت كل يوم عن العالم فتقوم ويقوم العالم بواسطتها!!

والكنيسة التي لا تشاء أن تموت، لا يمكن أن تقـوم، وروح القيامـة يفارقها، والعالم إذا مات يموت بذنبها!!

المسيح لم يجعل العالم طريقاً مهملاً يطأه في عبوره إلى ملكوت أبيه، بل جعل نفسه الثمينة جدا سِكَّةً يطأها العالم، ودمه المسفوك وجسده طريقـاً حيا يعبر عليه الخاطئ والمذنب والأثيم حتى يصل إلى الآب. هكذا الكنيسة أيضاً جعلها الله طريقاً، لا بتعاليمها ولا بأقوالها ولا بـصلوا ا وحـسب؛ ولكن قبل كل هذا بمو ا عن العالم، بفقرها وذلها واحتمالها الصلب مراراً، وكل قديس وكل بار هو بالحقيقة جزء حي من الطريق الذي مهده المسيح بدمه وصليبه لكي يعبر الناس عليه وذلك بأن يمات كل النهار لا من أجل نفسه بل من أجل العالم الذي أحبه الله.

لقد جعل الله للإنسان إمكانية الولادة الجديدة التي يتبعها عدم الموت، حتى يسهل على كل من يأخذها أن يموت مرات كثيرة عن الآخرين بدون خوف!! وبسبب القيامة أصبح لا خوف في الموت.

لقد جعل المسيح موته آية لحبه العظيم، وليس أمام أولاد الله جميعـاً آيـة يظهرون ا حبهم الحقيقي نحو الرب يسوع إلا مو م بفرح وسخاء من أجل العالم الذي أحبه يسوع: «ليس لأحد حب أعظم من هذا...» (يو ١٥: ١٣).

الكنيسة ليس لها عمل على الأرض إلا أن تحب المـ ـسيح، وبالتـ ـالي أن تموت عن الآخرين لكي تسعد كافة الناس ذا الحب المحيي. فإذا سـ ـألت: ما هو العالم بالنسبة للمسيحي؟ أقول لك هو تمامـ ـاً اليهـ ـودي بالنـ ـسبة للسامري، أو بمعنى واضح هو كل إنسان في حاجة إلى محبته حتى ولو كان لا يمت إليك بصلة، حتى ولك كان عدوك.

والكنيسة بذلك مدعوة بكافة مواهبها وكافة أفرادها أن تحمل مسئولية ضعف العالم وهوانه وأوجاعه.

مفهوم الأرثوذكسية لرسالة الكنيسة في العالم

كثيرون ينكرون على الأرثوذكسية أية رسالة عملية قامت ا للعالم.

ولكن الحقيقة أن رسالة الكنيسة الأرثوذكسية ليست ذات مظهـر أو كيان بشري حتى يمكن وصفها بالأعمال والأقوال. فهي رسالة سرية غاية في الأهمية ولكنها غير منظورة، أو كما يقول بولس الرسول: «مستترة في المسيح» (راجع: كو ٣: ٣).

فإن كانت الكاثوليكية تؤمن أن رسالتها هي تثقيف العـالم في كافـة الميادين العلمية والفنية والاجتماعية والدينية، وقد قامت فعلاً بنشر العلـم والثقافة وأنشأت المؤسسات في كافة أنحاء العالم حتى غمرت جميع بلـدان الأرض بنشاطها؛

وإن كانت البروتستانتية آمنت بأن رسالتها هي إصلاح ا تمع البشري ونشر معرفة الإنجيل خالصة حرة من كل تقليد، وبذلت في سبيل ذلـك جهوداً عظيمة لا يمكن أن تنكر؛

فالأرثوذكسية التقليدية لازالت تحتفظ بنظر ا اللاهوتية بالنسبة للاتـصال بالعالم وخدمتها له، على أساس أن تحويل العالم وتجديده هو علـى نفـس مستوى تحويل أي نفس بشرية وتجديدها، ولا يتم ذلك إلا باستعلان يسوع المسيح، أي لابد أن يتم من خلال سر التجسد والفداء. ولا أحد بمستطيع أن يوصل سر التجسد والفداء للعالم من خلال المنشآت الثقافية أو التعليمية، أو حتى من خلال التعليم ونشر الإنجيل، إذ لابد من استعلان إيمـان الكنيـسة

نفسها للعالم أولاً كنموذج حي لكي يعلن بواسطتها سر المسيح، وحينئـ ـذٍ يستطيع العالم كله أن يأخذ منها، حتى ولو لم تتحرك، حتى ولو لم تعمل!!

وقد نجحت الكنيسة الأرثوذكسية في تطبيق إيما ا هذا في العصور الأُولى حتى القرن الخامس والسادس، إذ قدمت للعالم بالفعل نماذج حيـ ـة قديـ ـسة استعلن فيها المسيح وارتاح فيها الروح القدس، لا كـ ـأفراد، ولا كجماعـ ـة صغيرة، بل ألوف وعشرات الألوف من نساك ومتوحدين وسواح وبطاركة لاهوتيين. هؤلاء لم يذهبوا هنا ولا هناك ولكن بلغ صيتهم وتـ ـأثيرهم كـ ـل الأقطار، ووصلت أخبارهم ونماذج سير م إلى أقصى الأرض، وتأثر العـ ـالم كله بإيما م وحيا م، ولا يزال متأثّراً م حتى اليوم، فتم فيهم قول النبوة: «لا قول ولا كلام، الذين لم تسمع أصوا م، في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم» (مز ١٨: ٣و٤ حسب الترجمة القبطية).

وهكذا يتضح أن مفهوم الأرثوذكسية عن رسالة الكنيـ ـسة في العـ ـالم يدور حول إيما ا هي أولاً، وتجديدها هي أولاً، واستعلان سر المسيح فيها – حتى تستطيع أن تحول العالم المحيط ا بالقوة الروحية الـ ـتي فيهـ ـا، أي بالنعمة التي من فوق وبسر حضور المسيح في وسط الجماعة.

فكما تؤمن الكنيسة أن لا خلاص للفرد إلا بميلاده من فوق بواسـ ـطة الروح القدس، هكذا تؤمن أيضاً بالنسبة لتجديد الحياة الاجتماعية والعالم كله. لأن كل تجديد بالمفهوم الأرثوذكسي هو تحول، وكل تحول هو عمل سري مباشرة من أعمال الله. وكل عمل أو جهد أو تعليم خارج عن هذا المفهوم الأرثوذكسي هو في الحقيقة بلا فائدة مهما كان عظيماً ومتـ ـسعاً وشاملاً. فالعالم كفيل أن يبتلع كل مجهود بشري خارج عن فعل النعمة!!

وواضح جدا أن اتجاه العمل في الكنيسة ينقسم بذلك إلى قسمين: قسم تأسيسي تعليمي يتجه اتجاهاً إنسانيا، وهذا يمثِّله الغرب؛ وقـسم سـري تجديدي يتجه اتجاهاً إلهيا، وهذا يمثِّله الشرق الأرثوذكسي. و لذا تتميـز الكنيسة الأرثوذكسية في علاقتها بالعالم عن كافة الكنائس الأخرى: فبينما الغرب على وجه العموم يستخدم طرقاً تعليمية ووعظية واجتماعية لتغـيير العالم، نجد أن الأرثوذكسية تتمسك بطريق واحد لاهوتي صِرف يقوم على استعلان حياة المسيح من خلال حياة الكنيسة – أي الإنسان الكـارز – وتتميم سر التحول والتجديد كفعل إلهي باعتبار أن طبيعة العـالم الـتي فسدت لا يمكن أن يصلحها علم ولا معرفة ولا خدمة خلوا من النعمة!

ونحن لو تعمقنا الواقع لوجدنا أن الشر الذي في العالم أقـوى عـشرة أضعاف من إرادة الخير التي فينا. فإن لم تستعلن قوة المسيح فينا أولاً فأي اتصاب بالعالم لن يجديه نفعاً، مهما كانت نياتنا الحسنة وجهودنا وأعمالنا الكثيرة. فاتصالنا بالمسيح وقبولنا سر القوة منه على تحويل أنفسنا وتجديدها يكون بحد ذاته هو مصدر القوة والإلهام للاتصال بالعالم وتجديده، على أن يكون العامل فينا هو المسيح، إذ يعلن بواسطتنا طبيعته للعـالم ويكمـل مشيئته المباركة للآخرين عن طريق ما يضعه في أفواهنا وما يلهمنا عملـه من المحبة والبساطة والاتضاع.

مركز المسيح في المجتمع

إن المحاولات الجبارة التي قام بها العلماء الاجتماعيون والتربويون والنفسانيون خلال القرنين التاسع عشر والعشرين لرفع قيمة الإنسان الذاتية وتسليحه بأخلاق اجتماعية، بدون المسيح، باءت بخسارة عظيمة لا يمكن أن تعوض.

وإن سر فساد المجتمعات في البلاد الغربية يرجع لسبب واحد لا غير، هو الاستغناء عن المسيح! فكل المكاسب الاجتماعية العظيمة التي فاز بها العالم الغربي كميراث لنشاط الكنيسة في القرون السالفة وتقوى الآباء، سواء كانت هذه المكاسب مبادئ إيمانية أو أخلاقية أو أدبية، كلها قد بدأ ينخر فيها السوس، سوس الكبرياء العنصري والنفعية والإباحية الجنسية والحرية الإحرامية، حتى تشوه كل جمال أوروبا وأمريكا واختفى منها الإنسان التقي الذي يخاف الله.

وقد ثبت أن الإنسان بدون المسيح لا يستطيع أن يحتفظ بميراثه الأخلاقي، مهما كان متيناً راسخاً. فبدون المسيح قد ينجح الإنسان أن يعمل كل شيء ولكنه لن يجمح في حفظ طهارته وأمانته وحبه للآخرين بدون عيب حتى النهاية. وقد تنجح البيئات المتقدمة أن تخدم الفقراء والضعفاء والمرضى والمشوهين بدون أي وازع ديني، ولكن بدون المسيح لا يمكن أن يبذل الإنسان نفسه من أجل هؤلاء الفقراء والضعفاء والمرضى!

كل البيئات العصرية الآن نجحت في تحررها من الرجعية ومن الخرافات ومن العبودية الفكرية ومن الظلم، ولكنها بسبب تركها للمسيح تحولت

الحرية لها إلى إباحية سافرة وإجرام وهبوط شنيع في المستوى الإنساني.

الحقيقة أن شخصية المسيح لا يمكن الاستغناء عنها. لذلك، كما أنـه بمجرد تجاهل المسيح ا ارت ا تمعات الغربية وصارت في خطر عظيم من التفتت، كذلك نحن نؤمن أن مجرد استرداد الإحساس بشخصية المسيح في هذه ا تمعات كفيل أن يعيدها إلى أقوى وأكمل مما كانت!!

لأن الإحساس بشخصية المسيح مصدر إلهام عظيم للإنسان كفيـل أن يرده إلى حالة إيمان وتوبة ورجاء يفوق ا كل الاحتمـالات الـسلبية. والإنسان الذي يتمسك بالمسيح يستمد منه طاقة تمييز فائقة يـستطيع أن يحكم ا على كل الأمور ولا يطغى عليه الشر قط.

فشخصية المسيح في ا تمع مصدر قوة وحيوية وتجمع، ترفع الإنـسان فوق ذاته بدون جهد، فيرتفع الإنسان دون أن يشعر بارتفاعه لأنه لا يرتفع بذاته. لذلك، فعمل المسيح في ا تمع يختلف اختلافاً جوهريا عن عمـل الثقافات والعلم والمعرفة. لأنه إن كانت هذه يمكنها أن ترفـع الإنـسان بالمعرفة فوق ذاته، فهي لا تؤمنه ضد الكبرياء المحتمل مـن هـذا النمـو والارتفاع. أما المسيح فيرفع الإنسان إليه بالاتحاد الشخصي إلى ما لا اية.

المسيح قال: «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢)، ولكن – للأسـف – لم يزل إلى الآن يضيء بما فيه الكفاية بسبب رداءة الموصلين لهذا النور. فالإنسان بحد ذاته معتم، وإذا حاول أن يمتص نور المسيح لذاته فقط يزداد عتمة، لأنـه يزداد أنانية وكبرياءً بمعرفته. أما الذين يعكسون نور المسيح بـسهولة علـى الآخرين تجدهم يتوهجون بالنور كقمم الجبال في مطلع الشمس!

الإنسان الذي يتصل بالمسيح بقلبه ويستعيد مشيئة نفسه لخدمة محبته يزداد حرية، يزداد شجاعة، يزداد بذلاً، يزداد رجاءً يسند به الضعفاء والبائسين.

الإنسان الذي يستمد كلماته من فم المسيح، هو بمثاب ـة ن ـبي وس ـط الجماعة، أي جماعة سواء كانت متدينة أو غير متدينة، لأنه يلهمها ق ـوة جديدة هي دائماً في أشد الحاجة إليها.

فا تمع البشري أينما كان تجده متحيراً قلقاً ساخطاً متبرماً على الحياة، خائفاً من ـزعجاً من المستقبل، ولكن الحقيقة المدهشة أن هذه كلها أوهام، مجرد أوهام. والعلّة الوحيدة لسقوط هذه ا تمعات في هذه الدوامات هي هجرا ـا للمسيح ملك السلام!

والإنسان الذي تشعر الجماعة أنه محبوب لدى المسيح، تدفعه الجماعة التي يعيش معها لكي يتبوأ مكانه الأعلى في وسطها وتضطره أن يضع سراجه على المنارة، لماذا؟ لأنه يستطيع أن يدفئ قلوب الناس بحرارة المسيح وينير ظلم ـة القلوب بإشراق نور المسيح السري الذي يشع من وجهه وكلماته وحبه.

كذلك، إن من الأسباب الرئيسية التي تسببت في ا يار ا تمعات الع ـصرية استغناءها عن حقيقة الحياة الأبدية، أي إهمالها لفكرة الحياة الأخرى. فكان من نتيجة ذلك أن أُصيبت ا تمعات بنكوص شديد وهبوط خط ـير في تقييمه ـا للمبادئ الأخلاقية والإنسانية، لأن الذي يشد ا تمعات إلى الأمام ويحفظ نموها ورقيها الأخلاقي هو إحساسها بالحياة الفضلى الآتية، مما يجعلها دائماً أبداً تعيد ذا ـا إعداداً داخلياً مستمراً لتناسب هذه الحياة الفضلى. إذاً، فالإيمان بملك ـوت الله والحياة الأبدية عنصر أساسي في تقدم ا تمعات وتطورها المستمر.

ومن هذا يتضح أن الرجاء المسيحي بالحياة الأبدية وبمجيء المسيح هو العصب الرئيس المسئول عن المسير والنمو في الحياة الاجتماعية.

الحياة الاجتماعية، من وجهة نظر المسيح نفسه، إعداد دائم للمستقبل. لذلك، فمركز المسيح في ا تمع البري ليس هو داخل دائرة ا تمـ ـع بـ ـل خارجها: «قد قام ليس هو ههنا ... لماذا تطلبن الحي بـ ـين الأمـ ـوات؟» (لو ٢٤: ٦و٥)!

فالمسيح ارتفع إلى فوق لكي يجذب إليه الجميع!!
ما معنى هذا؟

معناه أن عمل المسيح في ا تمع البشري ليس أن يصبح أكثـ ـر لياقـ ـة للحياة على الأرض أو أكثر تعاوناً أو أُلفة أو سلاماً أو فرحاً أو راحـ ـة أو متعة. فهذه كلها يمكن أن تؤمنها ا هودات البشرية والأموال.

ولكن عمل المسيح هو أن يجعل المتجمع البشري أكثر لياقـ ـة للحيـ ـاة الأبدية، أي أكثر فهماً الله وأكثر حبا له وبذلاً من أجل محبته، وأكثر صبراً على كل ضيقات ومحن الأرض، وأكثر احتمالاً لمظالم الناس وشـ ـرورهم، وأكثر شكراً في كل الأحوال، وأكثر اتضاعاً بما يناله من خيرات ومواهب، وأكثر أمانة على القليل، وأكثر تجرداً من كل ما يعوق مـ ـسيره، وأكثـ ـر طهارة التي بدو ا لا يحسب له شيء.

وهذه هي الصفات الكفيلة بأن تطور ا تمع البشري تطوراً مـ ـستمراً أميناً لا نكسة له، فتجعله مؤهلاً للاتحاد السري الذي يكمله الرب كل يوم بتجسده وفدائه شيئاً فشيئاً، إلى أن يكمل إخضاع كل نواميسه وتياراتـ ـه

وأفكاره الإيجابي منها والسلبي إخضاعاً مثمراً الله.

ثم يأتي السؤال:

هل للمسيح عمل في ا تمعات غير المسيحية وا تمعات التي رفضته؟

والإجابة على هذا السؤال في غاية الأهمية لأ ا تختص بطبيعة المـ سيح وطبيعة العالم.

أما من جهة طبيعة المسيح: فهو على حد قوله: «أنا هو نور العـ ـالم» (يو ٩: ٥)، والنور لا يمكن أن يحجر نفسه، لأن جوهر طبيعة النور كمـ ـا علمناه من الإنجيل هو أن «ينير كل إنسان آتياً إلى العـ ـالم» (يـ ـو ١: ٩) بدون تفريق ... كما أن المسيح: «جاء ليخلّص به العالم» (يو ٣: ١٧)، وهذا هو جوهر عمله.

أي أن طبيعة المسيح وعمله غير محدودين. فالمسيح محب للإنسان وقـ ـد سمى نفسه عن حق وفعل «ابن الإنسان»! وهو لا يزال يتمشى في الأرض كلها يقرع كل باب، ويقرعه إلى ما لا اية، ويستجيب لكل دعوة، «أم الله لليهود فقط؟ أليس للأُمم أيضاً، بل للأُمم أيضاً» (رو ٣: ٢٩). لهـ ـذا أُرسل المسيح ليكون مركز تلاقي بين «القريبين والبعيدين» كقول بـ ـولس الرسول (أف ٢: ١٣)، وليجمع الكل في واحد الذي هو نفسه!

وأما من جهة طبيعة العالم: فلا فضل للإنسان على إنسان، وليس لأحد قط أن يقول عن نفسه أنه بار أو على آخر أنه شرير. فمن جهة العـ ـدل: «لأن الله أغلق على الجميع معاً في العصيان» (رو ١١: ٣٢)، أما من جهة الرحمة فيقول

الكتاب: «ليرحم الجميع» ... وقد تيقَّن بطرس الرسول – بإعلان إلهي – «أن لا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس» (أع ١٠: ٢٨).

فالمسيح جاء ليخلِّص العالم، وخلاص العالم لا يعتمد على استحقاق العالم ولكن على مشيئة المسيح الطيبة المقتدرة. والمسيح – كما رآه يعقوب بالنبوة – هو السلم العظيم الذي يربط الأرض بالسماء، والبشرية مدعوة كلها أن تصعد عليه. ففي المسيح ينجمع تاريخ تقدم كل الشعوب سواء التي انتمت إليه علانية أو التي رفضته، لأن نور المسيح يتغلغل العالم عنوة!!

وكل مجتمع بشري، مهما كان، هو بصورة ما واقف على إحدى درجات هذا السلم الخفي الذي يربط العالم بالله.

والحقيقة التي ينبغي أن يدركها كل مسيحي ويتيقَّن من جهتها، هي أنه مستحيل أن يبلغ أي مجتمع بشري في أية أُمة أو أية كنيسة كماله ويكون لا يزال على الأرض شعب متخلِّف محروم – لأن البشرية مرتبطة بالمسيح كارتباط الكل بالواحد، فالسابق يتعوق بالضرورة بسبب المتخلِّف ... حتى الشهداء لما صرخت أرواحهم من تحت مذبح الله في السماء ليقيم الله العدل ويدين الأرض قيل لهم أن يكفُّوا عن هذا التسرع غير الرحيم: «فأُعطوا كل واحد ثياباً بيضاً وقيل لهم أن يستريحوا زماناً يسيراً أيضاً حتى **يكْملَ العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضاً** العتيدون أن يقتلوا مثلهم» (رؤ ٦: ١١).

لذلك أعطانا الكتاب المقدس رجاءً لا يتزعزع أننا لابد مكملين خلاصنا بمشيئة القدوس الذي يطلب «خلاص الجميع»: «إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يكْملُوا بدوننا» (عب ١١: ٤٠).

وإذ لنا هذا الرجاء والإيمان الحي بعمل المسيح السخي، علينا أن ننظـر إلى كافة الناس البعيدين عن المسيح ذا الرجاء والإيمان عينه، ولا نكـف عن خدمتهم والصلاة عنهم بتوسل ومحبة، عالمين ومتيقنين أن مشيئة المسيح هي خلاصهم!!

فرسالة المسيح لن تنتهي حتى يكمل أفقر وأصغر أخ في البـشرية، والله ضامن لحقوق الضعفاء والمذلين، ونحن عرفنا وتيقَّنا أن الوليمة السمائية لن تبدأ حتى يدعو كافة المنبوذين الذين خارج السياج.

لأنه «أحبهم، أحبهم إلى المنتهى ...» (يو ١٣: ١).
«ولكن ليس المنتهى بعد ...» (مت ٢٤: ٦).

ثم يأتي السؤال:

هل المسيح لا يزال موجوداً وسط شر العالم؟

وهنا الإجابة على السؤال ضرورة لاهوتية وضـرورة كونيـة في آن واحد. فلأن المسيح إله، إذاً فهو حتماً محيط بالعالم كله في كـل وقـت. ولأنه قد تجسد وتبنى قضية الخطاة والأشرار، فهو بالضرورة يـلازم كـل مكان وكل تيار يسري فيه الشر – وإن كنا لا نرى بسبب عدم صـبرنا وضعف رؤيتنا مقدار ما يحدثه المسيح من تغيير في العالم، إلا أننا متيقنـون أنه يعمل بلا هوادة وبصبر يفوق عناد الإنسان، لتغـيير قلـب الإنـسان وفكره، إن لم يكن عن طريق الإيمان المباشر فبواسطة توجيـه تطـورات الفكر نفسه، مهما كانت سلبية، والضغط عليها روحيا حتى تستـسلم في النهاية وتصرخ «ربي وإلهي» (يو ٢٠: ٢٨)!! فالتطور الـذي تتطـوره ا تمعات، حتى ولو كان سلبيا، هو أملنا الوحيد الذي نلمح فيـه خطـة

خلاص محكمة حينما ينتهي التطور إلى نقطة حرجة يقف فيها الإنسان أمام المسيح وجهاً لوجه!!

وهذا مما يجعلنا مستعدين بغيرة ونشاط أن نخدم وسط التيارات السلبية ونكافح دون أدنى يأس؛ بل إن الروح نفسه يحثنا لكي نتقبل هذه التيارات السلبية الشريرة والملحدة والفاسدة، بصفتها ميداناً يمكن أن يستخدمنا فيه الله، لكي يصنع بحياتنا وموتنا تغييراً فيها يتمشى مع الصليب ومشيئة الفداء، لأن المسيح متمركز وسط الأشرار والخطاة لأنهم موضوع محبته وعطفه.

ما هو عمل المسيح داخل المجتمع؟

الإنسان المسيحي بالنسبة للمجتمع يمكن توزيعه على ثلاث فئات:

في الأولى: المسيحي الذي لم يعِ بعد مسيحيته وحقوقها.

وفي الثانية: المسيحي الذي وعى مسيحيته وحقوقها ولم يعِ بعد واجباته بالنسبة للمجتمع.

وفي الثالثة: المسيحي الذي بلغته الرسالة كاملة بالنسبة للمجتمع.

والانتقال من فئة إلى فئة قد يطول زمانه بالنسبة لضعف التسليم الروحي.

وهذه الفئات أو المراحل لم تكن موجودة أصلاً في الكنيسة الأُولى ـذا التحديد الزمني المتباعد، لأن المؤمنين كانوا بمجرد أن ينالوا العماد، كـ ـانوا يصبحون لائقين في الحال لحمل رسالة الكنيسة. أما الآن فـ ـالأمر لـ ـيس كذلك لعوامل أصابت الكنيسة وأصابت المؤمنين، وأخصها عدم البساطة وعدم الغيرة على خلاص نفوس الناس، ولم يعد التحول من الحياة حسب الجسد للحياة حسب الروح أمراً بسيطاً كالأول.

سمات الفئة الأُولى:

وفيها لا يكون المسيحي قد وعى بعد مسيحيته ولا تكون تعاليم المسيح قد تحولت فيه بعد إلى فعل داخلي أي إلى حياة، ولا تكون الحرارة الإلهية قد دخلت قلبه التي هي علامة فاعلية الروح القدس القادرة على التحويـ ـل والتغيير والتجديد.

ويكون الإنسان في هذه لا يزال يعيش بأخلاقه وعاداته وميوله ومزاجـ ـه التي اكتسبها من الأسرة والبيئة، أي لم يتغير بعد. ولهذا يكون أقرب للتـ ـأثر

بالبيئة وأخلاقها السائدة من تأثره بالإنجيل، لذلك يكون عرضة ليبتلعه التيار بكل سهولة مهما كان ذا اسم أو ذا صيت أو ذا شكل، لأن قوة مقاومة الإغراءات تكون ضعيفة فيه للغاية. والإنسان في هذه المرحلة، ولو أنه يكون محسوباً عضواً في الكنيسة، إلا أنه يكون في الحقيقة غير مدرك بعد لمسئوليته الروحية، لا بالنسبة للمجتمع ولا بالنسبة للكنيسة ولا بالنسبة لنفسه.

فهو يسمع عن مسئولية الكنيسة لرسالة الإنجيل، ولكنه لا يحس بنصيبه في هذه المسئولية، كما أنه لا يحس بأي إلحاح باطني يجعله ينشغل بخلاص الناس الذين يهلكون حوله، ولا يشعر أيضاً أن خلاصه الشخصي مربوط بخلاص الآخرين. كما أن الإنسان في هذه المرحلة يمكنه أن يتحدث عما هو واجب على الكنيسة، ولكن يستثني نفسه بكل سهولة وبكل ارتياح. والسبب أنه لم يعد بعد عضواً حقيقياً في جسم المسيح، أي الكنيسة، حتى يحس بشركة الألم والفرح والمسئولية. فكلمات المسيح وجروحه وصليبه لا تزال غريبة عنه!

آه ما أعظم الخسارة التي تخسرها الكنيسة بتسليم من هم في هذه المرحلة وظيفة تمثيل الكنيسة للاتصال بالعالم!

سمات الفئة الثانية:

وفيها يكون المسيحي قد وعى مسيحيته وعياً داخلياً، وتحولت تعاليم المسيح فيه إلى حياة وإلى حرارة تظل تكمل تحويله داخلياً وتغير شكله يوماً بعد يوم. هنا يكون الإنسان في حالة يقظة وفعل، **ولكنه يكون غير مهيأ "للتفاعل" مع المجتمع الذي يعيش فيه.** أي أنه بالرغم من قدرته المدهشة في الذود عن نفسه ضد شرور الوسط وإغراءات انحلال البيئة، الأمور التي كان ينجذب إليها سابقاً، إلا أنه يقوى على إقناع الغير بضررها وفسادها،

وهو بهذا يعتبر أنه ناجح في حربه السلبية داخل المجتمع **ليحمي نفسه** من التيارات، ولكنه لا يكون قد تسلَّح بعد بأسلحة الحرب الإيجابية التي بها يستطيع أن يوقف التيار ليحمي المجتمع نفسه من شروره.

وهو بسبب وقوفه هذا الموقف السلبي من المجتمع يكون عرضة دائماً للسخرية والنقد الشديد لأنه لا يجاري التيار، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يصده أو يوقفه!!

الإنسان المسيحي في هذه المرحلة يبدأ يحس بواجبات الكنيسة ومسئوليتها الثقيلة والخطيرة ويئن جدا، ولكن أنين العاجز الذي إذ يرى الحرب قائمة والجهاد منصوباً والعدو تافهاً منتهى التفاهة، ولكن إذ يرى نفسه عارياً من كل سلاح يقف حزيناً باكياً، ولكن هذه الأحاسيس والمشاعر لا تمر فارغة؛ بل هي الوقود الناري الذي يضطرم في الداخل لتجديد الحياة كلها. فهذه المرحلة هي مرحلة التعبئة الداخلية التي تعمل فيها حرارة الروح القدس وأسلحة النعمة لتهذيب النفس وبنائها على الحب والبذل وقطع ربطها العتيقة التي كانت تشدها إلى الأرض.

وتظل هذه المرحلة رهينة بتأجج فعل الروح في القلب، إلى أن تتبدل الصورة العتيقة التي يصورها القلب لنفسه وللعالم، وتنمو صورة جديدة من وسط لهيب المحبة فيها يظهر الإنسان الجديد متهيئاً لحمل السلاح والشهادة حتى الموت، حيث يصبح نظر الإنسان مثبتاً إلى فوق لا ينثني يميناً أو يساراً.

هذه الفئة الغيورة هي التي يربيها الروح القدس لحساب الكنيسة لتحمل الشهادة والصليب.

سمات الفئة الثالثة:

وفيها يكون الإنسان قد نجح في حربه الداخلية مع نفسه، وأخضع ميوله وشهواته وآماله لمشيئة المسيح، وضبط ذاته ضبطاً روحيا أهله أن يسلمها للرب تسليماً ناجحاً يزداد قوة وعمقاً كل يوم، وأصبح يحس أنه ليس حرا في تصرفاته لأن يد الرب تمسكه وتقوده. كما أنه لم يعد في نظر نفسه قادراً على شيء، ولكن يثق في الرب أنه قادر أن يصنع به كل شيء – لو أراد – وهو يتبع هذه الإرادة حتى الموت. وبهذا يتسلَّح الإنسان بأقوى سلاح في حربه الإيجابية تجاه العالم، وهو الاختفاء وراء الرب، فينجح دائماً وفي نفس الوقت ينجو من الغرور!

وفي هذه المرحلة يحس الإنسان أنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من الكنيسة ومن جسم المسيح المصلوب المتألِّم للعالم! فهو يرى نفسه دائماً مسئولاً عن الكنيسة وعن ضعفها وعن رسالتها من أقصى الأرض إلى أقصاها، يئن تحت نيرها ويود لو يزاد نصيبه الشخصي من آلامها وعارها، وذلك ليس طموحاً ولا اجتراءً ذاتياً لأنه يكون في الحقيقة متمنطقاً بأسرارها ويجري في دمه حب المسيح ووصاياه، وهو لا يهدأ ولا يستطيع أن يهدأ عن الشهادة للمسيح والإنجيل أينما وجِد وكيفما كان.

وفي هذه الفئة نجد الشباب الملتحف بالنعمة والحكمة، والشيوخ الذين لم يشيخوا أبداً المستنيرين بالحق والتجربة. هؤلاء هم الذين «أفرزهم الروح القدس للخدمة» (انظر: أع ١٣: ٢)، إذ سبق فصورهم وهم في البطن للعمل.

هؤلاء يتميزون بإحساسهم المرهف للمسئولية لا يهدأون ولا يجعلون الله يهدأ، بصراخهم من أجل الخدمة التي يحسونها بصفة مستمرة تجاه كل

إنسان في كل مكان معتبرين أن الشهادة للمسيح والإنجيل أولى من الأكل والراحة والنوم والصحة بل وأهم من السمعة والحياة كلها. وهـ ـم ـ ـذا الإحساس يقدرون أن يشهدوا بقوة وبفرح وحرية واقتنـ ـاع ويـ ـشرحون بقلبهم سبب الرجاء الذي فيهم، ويكون إحساسهم هذا الملتهب بالحـ ـب والفرح والبذل حتى الموت هو عينه القوة المحولة التي تغير قلوب النـ ـاس، وهو عينه البرهان المقنع على صدق رسالتهم، وهو أيضاً السند الذي يسند ويثبت المؤمنين الجدد إزاء كل التجارب التي تلازم المؤمنين في بدء حيا ـم.

هذه الفئة هي قلب الكنيسة وهي الكتف المقـ ـدس المـ ـنحني بـ ـالفرح والتهليل تحت نير المسيح الحلو.

وعلى أساس الحالة الداخلية التي يكون فيها الإنسان المسيحي، تتحـ ـدد مسئوليته تجاه ا تمع وتتوقَّف النتائج:

فأصحاب الفئة الأُولى:

يكون من الخطورة وا ـازفة أن توضع عليهم أية مسئولية تجاه ا تمع، لأن النتائج معروفة ومفروغ من أمرها. وإن كانت هناك نصيحة مخلصة بالنسبة لهم، فهي رفض كل مسئولية تقدم لهم، والاكتفاء بالتمسك بالإنجيل والصلاة بكل إصرار، حتى يشرق نور المسيح في قلو ـم، على أن التـ ـزامهم بطاعة مرشديهم وآبائهم هو بالنسبة لهم بمثابة صمام الأمان إلى أن يقبلوا من الله القـ ـدرة علـ ـى الفهم والتمييز الداخلي الذي يساعدهم على النمو بسرعة.

أما أصحاب الفئة الثانية:

فمجالهم في البيئة وإن كان لا يحتمل تبوء مراكز قيادية من أي نوع إلا

أ ـم في أمان من جهة تعرفهم على روح البيئات التي يعيشون فيها بـ ـسبب النور الداخلي والحرارة التي تكون لهم بمثابة مقياس أمين ثابت يقيسون عليه كل ما يعرض عليهم من المشاكل والإغراءات والمبادئ المزيفة.

هذا الصف من المسيحيين لا يقف جامداً، لأن الروح القدس يدفعـ ـه دائماً للتحرك ويوسع أمامه دائرة خبراته بكل طريقة دون أن يشعر بالخطة الإلهية التي يدبرها الروح لملء حياته. لأن ظروفه وتحركاته قد تبدو أمامـ ـه أ ـا ليست وفق هواه، فقد يلقيه الروح في بيئات عنيفة في تيارا ـا ثم يعزله في بيئات هادئة ثم يلقيه وسط مشاكل أعلى من قامته، ولكن يسنده حتى يعبرها ويأخذ قو ـا وهكذا، إلى أن يتم نضجه ويتفتح وعيـ ـه الخـ ـارجي لقبول مسئولية ا ـتمع الخارجي.

أما أصحاب الفئة الثالثة:

فهؤلاء هم الذين كملوا في مدرسة النعمة بتأديبا ـا وآلامهـ ـا، ونـ ـالوا إجازة الصبر وتسليم الحياة ولهم قدرة على المسير في الظلام كالنور، تجدهم إزاء المخاطر والتهديدات مملوئين رجاء لا يهدأون في سعيهم المقدس، لأن العمل عندهم مصدر راحة والألم مصدر إلهام.

وعلى كتف هؤلاء يصلح أن يوضع نير المسيح بكل ثقة واطمئنان. أما المسئولية التي يواجهها هذا المسيحي الناضج فهي تنحصر في هذه الأُسس الثلاثة:

أولاً: الهدف الذي يسعى إليه المسيحي من عمله في ا ـتمع.

ثانياً: المصدر الذي يستمد منه المسيح قوة العمل.

ثالثاً: الوسائل التي يستخدمها المسيحي في عمله.

الهدف الذي يسعى إليه المسيحي من عمله في المجتمع

أولاً: تحديد الهدف:

حينما سلَّم المسيح الرسالة إلى تلاميذه لم يلجأ قط إلى التخـصيص، لا بالنسبة إلى حقول العمل ولا بالنسبة لنوع العمل، فجعل الكل مسئولاً عن كل العالم، يتلمذو م للمسيح بمقتضى كل تعليمه! ولأن هذا يعتبر فـوق الطاقة، لذلك قدم لهم نفسه كعامل يضمن التنفيذ.

+ «فاذهبوا وتلمذوا **جميع الأمم** ...» (مت ٢٨: ١٩)،
+ «وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والـسامرة **وإلى أقصى الأرض**» (أع ١: ٨)؛
+ «وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»،
+ «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨: ٢٠)

ومن هذه التحديدات الثلاثة يظهر عمومية الهدف وعمقه وتفوقه فوق الطاقة وطوله الزمني. كذلك يتضح من هذه التوصيات الثلاث الأخيرة التي أوصى ـا المسيح تلاميذه أن الرسالة طويلة، طويلة جدا، وسوف تـشمل الدهور كلها، وسوف تستنفذ كل طاقات البشرية. على أن ضمان تكميلها أكيد أكيد جدا، بسبب تدخل المسيح المباشر غير المنظور.

أما بخصوص مسئوليتنا تجاه هذه الرسالة الإلهية الطويلة الأمد، فلا يمكن أن نختصرها أو نحددها لأنفسنا؛ إذ يلزم أن تظل بروحها العمومية حتى لا تخرج عن مضمون التدبير الإلهي ومعونة المسيح.

ولكن الصفة العمومية التي نستطيع أن نخدم ا ونطبع ا هدفنا لا يمكـ ـن أن تشمل العالم كله ذا المفهوم المكاني، وإنما يمكن أن تكون عمومية بالنسبة لأنواع الناس والبيئات دون أن نميز أو نتحيز للحـ ـم والـ ـدم ولا بالنـ ـسبة للصداقات ولا بالنسبة للمنفعة أو المزاج أو الراحة أو العقيدة أو الوطن.

ولأول وهلة يبدو أن تعدد ا تمع واتساعه ذه الصورة يضعِف الهدف، إذ يضطره أن يكون محدوداً في أضيق الحدود حتى يوافـ ـق هـ ـذه العموميـ ـة المتسعة. ولكن الواقع هو العكس تماماً، لأن تعدد لون ا تمع ذا الـ ـشمول والاتساع يرفع من قيمة الهدف ويجعله أعلى من أن ينحصر في إنـ ـسان أو في جماعة أو في شعب، و ذا يجنبه التحيزات والنظرات الـ ـضيقة والتعـ ـصب. ونكون مطالَبين حينئذ أن نقدم المسيح للعالم كما قدم نفسه هو للعالم تماماً.

فماذا كان هدف المسيح في تقديم نفسه للعالم؟

هنا نجد أنفسنا ملزمين أن نوضح هدف الإنجيل كله. ولكن هذا لـ ـيس بالأمر الصعب، فالإنجيل ناطق بذاته وواضح جدا وسهل. ويمكن اختصار كافة تعاليم المسيح التي وردت فيه إلى ثلاثة اتجاهات ثابتة محددة:

الاتجاه الأول: يختص بعلاقة الإنسان بالله.

الاتجاه الثاني: يختص بعلاقة الإنسان مع نفسه.

الاتجاه الثالث: يختص بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

أما الاتجاه الأول: فنجد أن التعليم الرئيس الذي يحدده ورد في حـ ـديث المسيح مع السامرية: «يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعةٌ لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب ... الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالِب مثل هؤلاء الساجدين له» (يو ٤ : ٢١-٢٣).

هنا نجد الجزء الأول والأهم من هدف مجيء المسيح وتعليمه، وهو رفع الأوهام المظلمة المخيمة على عقول البشر من جهة علاقتهم بالله وكيفيـة عبادتهم. فالمسيح هنا عامل منير فعال في العالم لتجديـد روح البـشرية وتقريبها إلى الله، وكلام الإنجيل قادر أن يعمل هذا.

أما الاتجاه الثاني: فنجد أن التعليم الرئيس الذي يحدده ويـضبطه ورد هكذا: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه أو خسرها» (لو ٩: ٢٥). وهناك يكمل المسيح الجزء الأول من هدف مجيئه وتعاليمـه حيث **جعل النفس البشرية أهم من العالم كله ورفعها فوق كل ربـح.** وكافة تعاليم المسيح تصلح لتشير إلى هذه الغاية وتوجه النفس إلى خطورة هلاكها، إن هي رفضت تعاليمه.

أما الاتجاه الثالث: فنجد أن التعليم الرئيس الذي يحدده ويضبطه ورد في مَثل السامري واليهودي، حيث ضمد السامري جراح اليهودي واعتنى به جدا حتى شفي وتعافَى! بالرغم من أن اليهودي يبغضه ويحتقره بحكم الدين! هكذا يظهر المسيح والإنجيل كله كمصدر مصالحة وحب وليس تحزباً وعداوة. وهنا يكمل المسيح الجزئين الأول والثاني من هدف مجيئه وتعاليمه حيـث يرفـع الحصار العنصري المظلم البغيض القائم على الدين والعقيدة والجنس، وذلـك تمهيداً لتوحيد الإنسانية في إنسان واحد له قامة ملء المسيح.

وبهذا يكون قد تحدد أمامنا بوضوح هدف المسيحي الذي يرجوه مـن اتصاله بالعالم على أساس المسيح نفسه والإنجيل. ويمكن توضيحه في هذه الغايات الثلاثة:

الغاية الأولى: رفع علاقة الناس بالله لتبلغ درجتها الروحانية الحقيقية.

الغاية الثانية: رفع علاقة الإنسان بنفسه إلى أن يستطيع أن يهتم بخلاص نفسه فوق كل اعتبار آخر مهما كان.

الغاية الثالثة: رفع علاقة الإنسان بأخيه الإنسان لتبلغ قيمت ـ ها الإلهي ـ ة الأصيلة فوق كل اعتبارات الجنس والدين والوطن.

لكن الذي يعمل في هذه الغايات الثلاث ويجعلها هدفاً فعالاً، هو المسيح، فهو الذي يجعل علاقة الإنسان بالله تقوم على أساس روحي، وهو الذي يرفع من قيمة خلاص النفس فوق العالم كله، وهو الذي يوحد الإنسان بالإنسان. فالمسيح هو العنصر الفعال وراء هدف العمل الذي يعمله المسيحي في العالم، وهذا واضح جدا من قول المسيح: « علّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). لأن تعليم العالم بكافة وصايا المسيح لا يجدي نفعاً بدون المسيح، لأن الوصية غير قادرة بذا ـا أن تغير العالم إذا لم يكن المسيح يعمل فيها ومعها. لذلك يستحيل على أي إنسان أو جماعة أو هيئة أن تنجح في تحويلها لأي مجتمع إلى حالة أفضل ويبقى هذا التحول مستمراً نامياً، إلا إذا كان داخلاً ضمن مشيئة الله وعمله ويكون المسيح «هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (في ٢: ١٣).

فالمسيحي يؤمن إيماناً لا هوادة فيه أن تغيير ا تمع وتجديده إنما يتم عل ـ ى مستوى سري بتحولات صغيرة تتم في أركانه المتباع ـ دة بواس ـ طة جه ـ ود موضوعة تحت قيادة الرب، تعمل معاً كالخميرة لما تتوزع في العجين كل ـ ه. على أن أي تحول في أبسط صورة من صوره إنما يتم كعمل من أعم ـ ال الله المستمدة من سر التجسد والفداء!

ثانياً: تثبيت الهدف:

حينما ينجح المسيحي في الوصول إلى هدفه في ا تمع على أساس هذه الغايات الثلاث، لا يكون ذلك كافياً لضمان بقاء النفس البشرية أو أية جماعة ثابتة ونامية في حدود هذا الهدف، إلا إذا انتقلت النفس أو الجماعة من حالة تأثر إلى حالة تأثير، أي يلزم لكي يكون إيمان الإنسان حيا أو يكون فعالاً باستمرار. فكل إنسان في المسيح يسوع مطالَب أن يكون حيا عاملاً كعضو في جسم الرب، وذلك يستلزم أن يكون متحداً بالكنيسة ملتصقاً ا.

لذلك فكل عمل يعمله المسيحي بالنسبة للأفراد والجماعات ولا ينتهي باتصالهم بالكنيسة واتحادهم ا ومداومتهم على الصلاة فيها، حتى يحملوا هم أيضاً رسالتها يوماً من الأيام، فإن ذلك يعتبر عدم بلوغ الهدف. لأن الحياة مع المسيح لا تحتمل أن يبقى الإنسان منعزلاً عن باقي من يحيون مع المسيح: «فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١كو ١٠: ١٧).

وهذا في الواقع تمهيد لعمل سري أعظم وهو قبول الإنسان للاتحاد القلبي بكافة الناس على وجه الأرض كلها ومحبتهم على أساس، ومن خلال، محبة المسيح للعالم كله. وهنا تسمو وتمتد مسئولية المسيحي من دائرة العمل في كنيسته إلى دائرة العمل لخير البشرية كلها، وحمل مسئولية احتياجات الشعوب والأُمم المحرومة والمتألّمة، وهذه غاية رسالة المسيح وغاية هدف الإنجيل! و ذا يبلغ الإنسان المسيحي الصورة المتكاملة التي رسمها المسيح فيه سواء منذ البدء على صورة الله، أو منذ الصليب على صورة المسيح نفسه المذبوح من أجل خلاص العالم!

وهذه الصورة ليست وهمية أو فلسفية، فقد بلغها كثيرون جدا ممن قدموا حيا م ذبيحة عن الشعوب في البلاد التي كرزوا فيها بالإنجيل. وهذه الصورة نحن مدعوون جميعاً لبلوغها، سواء كانت خدمتنا صغيرة داخل الأسرة أو كانت متسعة نوعاً داخل الكنيسة أو متسعة جدا في كافة البيئات الأخرى، لأن القلب المسيحي حينما يكون مهيأ لقبول ومحبة كل إنسان يصادفه يصبح في الحال مثل قلب المسيح ويكون له – فعلاً – قدرة المسيح لتغيير وتجديد قلوب الناس.

أي أنه على قدر اتساع الهدف ينبغي أن يتسع القلب!
ولضمان تثبيت الهدف ونموه ينبغي أن نعمل له.

لذلك يلاحظ القارئ أننا تحاشينا كلمة "خادم" ووضعنا بدلها كلمة "المسيحي"، لأن المسيحي ينبغي أن يكون خادماً.

المصدر الذي يستمد منه المسيحي قوة العمل

القوة التي يعمل ا المسيحي في ا تمع الذي يعيش فيه يستمدها مـ ـن المصدر الآتي:

أولاً: من علاقته الشخصية بالمسيح.

ثانياً: من حضور المسيح.

ثالثاً: من فاعلية كلمة المسيح.

أولاً علاقة الإنسان المسيحي بالمسيح كمصدر فعال للتأثير في قلوب الناس:

المسيح الآن لا يستطيع أحد أن يراه أو يتحدث معه أو يلمس ثوبـ ـه أو يدهن رجليه بالطيب، ولكن ليس هذا معناه أنه غير موجود في العـ ـالم أو غير منظور كلية؛ فوعد المسيح قائم ونافذ: «ها أنا معكم كل الأيـ ـام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). لذلك أصبح الناس الذين لهـ ـم علاقـ ـة بالمسيح هم الوسيلة الوحيدة المنظورة لحضور المسيح، وحيـ ـا ـم الملتهبـ ـة بمحبة المسيح وأمانتهم له وإخلاصهم في تسليم حيا ـم لمشيئته بكل خضوع هي البرهان الوحيد المنظور والمحسوس لاستمرار عمل المسيح في العالم.

لذلك فقوة الشهادة للمسيح وللإنجيل لا يكمل تأثيرها في قلوب الناس، إلا إذا كان لها برهان عملي من حياة المتكلّمين والعاملين. أي أن المحبة التي يعيش ا الإنسان المسيح في علاقته بالمسيح، هي هي برهان إرساليته وهي هي قوة عمله.

والحديث عن محبة المسيح شيء يفوق الوصف والشرح، لأ ـا نـ ـار

مضطرمة لا توصف، تشتعل في قلب الإنسان يوماً بعد يوم، ويزيد لهيبها بلا هوادة حتى تمحق الإنسان وتفنيه، فلا يتبقى منه إلا ما يتبقى من ذبيحة المحرقة من رماد عادم لشكل الذبيحة وطبيعتها الأُولى، ولا يحمل إلا قوة الله على التطهير.

الإنسان الذي دخل مع الرب يسوع في عهد محبة لا يلبث إلا ويفقد كل صفاته الأُولى وأخلاقه وميوله ومزاجه، وتصير خدمة المسيح والشهادة لأقواله ووصاياه هي كل انشغاله وهمه وآماله، ويصير قول بولس الرسول هو تفكيره الدائم: «ويل لي إن كنت لا أُبشر» (١كو ٩: ١٦).

والإنسان تحت اضطرام هذه المحبة، يكون مساقاً يخدم هنا وهناك، كما يحمله روح الرب، دون أي اختبار أو مشيئة منه. ومن نار قلبه يستطيع دون إحساس منه أن يشعل كل فتيلة مدخنة تقترب منه.

هنا اضطرام المحبة في قلب الإنسان المسيحي، هي مصدر أساسي لفاعلية العمل والخدمة والتأثير، لأنها بمثابة توصيل حسي ملموس لحقيقة الكلام والشهادة.

وفقدان هذه المحبة المضطرمة، هي بمثابة القوة على تغيير الناس لأن التغيير يتم بقبول فعل المحبة.

أما العمل تحت تأثير هذه المحبة المضطرمة فلا يحتاج إلى مشجعات من أي نوع، بل بالحري يلازمه بذل وبساطة وتواضع شديد، وتنازل عن كل مجد وكرامة، وحمل ضعفات الآخرين بالصلاة والتشفُّع.

ولكن بمجرد أن تنحرف عين الإنسان ناحية المال كجزء لتعبه ويطالب

بالمزيد، يكون قد **سقط من المحبة** ودخل في مستوى الأُجراء.

كذلك حينما يبدأ يتأثر بكرامة خدمته ووظيفته ويطالب بحقوقها، تكون علامة سرية أنه **فقد محبة المسيح** ورمى إكليل الشوك.

وحينما يبتدئ يستثقل عمله في محيط الفقراء والأُميين والمرضى والمساكين وتزوغ عينه إلى الأوساط الغنية والبيئات المحترمة والجماعات المتعلِّمة، يكون ذلك برهاناً على **انطفاء لهب المحبة** من القلب وضياع دوافع الخدمة الأصيلة.

وحينما تبتدئ الحياة المدقّقة تبدو ثقيلة مع كثرة الأصوام والصلوات، ثم يبتدئ يتعثَّر في حياته كنموذج صالح وقدوة للإنجيل وحياة التقوى، وتستهويه مغريات الغِنى والمفروشات والمتع ووسائل التسلية؛ يكون ذلك إيذاناً **بغروب شمس المحبة بحرارتها** وتسرب ظلمة ليل العالم وبرودة الموت إليه. واستقالته من درجة المحبين والأخصاء ونزوله لدرجة العبيد.

ثانياً: حضور المسيح:

حضور المسيح أثناء العمل والكلام والإقناع مرتبط بعلاقة المسيح بالإنسان المتكلِّم.

هذا الحضور السري لا يحتاج إلى أي جهد بشري لتحقيقه وإنما يحتاج إلى إنسان يؤمن بهذا الحضور ويشخص إليه على الدوام، مترقِّباً عمله وتدخله وتأثيره في الناس.

أما الإيمان بحضور المسيح أثناء الشهادة له، فهو جزء لا يتجزأ من الإيمان بلاهوت المسيح وتجسده وفدائه.

أما ترقُّب عمله وتدخله وتأثيره في الناس، فهذا يتحقَّق بالفعل بسبب الإيمان باتضاع الرب وأمانة وعده: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠)، وكذلك: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧).

وكل ما يعجز عنه الإنسان في تفسيره وشرحه لحقائق الإنجيل يستطيع المسيح أن يكمله بطريقته الخاصة.

وكل ما يفشل فيه الإنسان يمضي بسببه حزيناً كئيباً، يعود المسيح مـن وراءه ويصححه بطريقته الخاصة أيضاً.

فالمسيح يعلّم تماماً ضعف الإنسان. وهو لم يلقِ الثقل كله علـى مـن أرسلهم ليشهدوا له، فهو لا يزال يقود الكنيسة في صراعها المريـر ضـد الشيطان وجنوده. ولكن إذا فترت الكنيسة عن الصراخ والصلاة وطلـب الرب، وتمادت في برود ـا وبعدِها عنه، ينشط الشيطان ويضرب ضـرباته المرة التي تظل تعاني منها الكنيسة إلى أجيال.

حضور الرب كفيل أن يمحق الشيطان ويبدد خططه، ولكن الكنيـسة مسئولة عن هذا الحضور: أولاً بحيا ـا الأمينة لوصاياه، وثانيـاً بـصلوا ـا وصراخها ودموعها.

والذي يعمله الرب في لحظة حضوره لا يمكن أن تؤتيه خطـط البـشر وأموال الدنيا وعبقرية الخُدام في ألف سنة. وسيظل الإيمان بالرب وحـضوره السلاح الوحيد لغلبة الشر في العالم.

+ «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا» (١يو ٥: ٤).

ثالثاً: فاعلية كلمة المسيح:

كلمات المسيح قد تسمعها من إنسان فلا تتأثر ا إطلاقاً، وقد تسمعها من إنسان آخر فيتقد قلبك بالنار وتحس بأن الكلمة نفـذت إلى أعمـاق نفسك وانفعل ا عقلك وقلبك وحتى جسدك.

وما ذلك إلا لأن كلام المسيح روح وحياة، ولا يمكن أن نتقل إليـك الروح من خلال إنسان ليس فيه هذا الروح وهذه الحياة. فلكـي ينطـق الإنسان بكلمات المسيح المملوءة روحاً وحياة، ينبغي أن تكـون هـذه الكلمات قد سكنت أولاً داخل قلبه وأحبها جدا وعاش ا وعاش عليها.

وكلمة المسيح حينما تصدر عن قلب يحبها ويؤمن ا يكون لها كـل قو ا وفاعليتها الذاتية، أما إذا صدرت عن قلب لا يعيش ا وغير منشغل ا فهي لا تكون بكل قو ا وفاعليتها.

وهذا لأن قلب الإنسان بالنسبة لكلمة الله هو ككشاف النور الذي يسلّط الشعاع على جوهرة من الماس الثمين في الظلام، فإذا كان القلب ضـعيف النور استحال عرض جمال الجوهرة. ونور القلب هو هو حب المسيح الفعال الملتهب والمقتدر في كشف كلمات الحبيب.

ولكن كلمات المسيح لها قوة وفاعلية أيضاً بحد ذا ا، حينمـا يقرأهـا الإنسان بنفسه أو يسمعها من فم ينطقها بوقار وأمانة، لأ ا قادرة بما فيها من حق أن تحاكم الضمير وتؤنب وتوبخ.

والإنسان الذي يستخدم الكلمة كمصدر يستمد منه قوة على تغـيير قلوب الناس، يلزمه أن يعرف أنه ليس بمهارة البحـث الكـثير والقـراءة

والتبويب يستطيع أن يبلغ إلى هدفه في تجديد حياة الناس. ولكن سر قـوة الكلمة يكمن في احترامها وحبها والخضوع لها والمعيشة المدقِّقة بمقتضاها.

كما أن التأثير في القلوب وتجديدها بالكلمة المحييـة لا يعتمـد علـى انتخاب الكلمات التي تسر السامعين وتناسب مطالبهم وأمزجتهم، ولكن في الاستماع الباطني لما يمليه الروح القدس من الكـلام الـذي يـسر الله ويتناسب مع الطريق الضيق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية. فهذه الكلمات هي وحدها القادرة أن تغير وتجدد وتحيي من الموت.

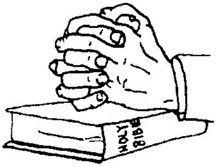

الوسائل التي يستخدمها المسيحي في عمله داخل المجتمع

نحن هنا بصدد الوسائل العامة وليس الفردية.

لذلك لسنا أحراراً أن نختار ما يروق لأمزجتنا أو لنظرتنا العملية أو خبرتنا الخاصة في اختيار وسائل العمل والخدمة والتوعية الروحية في ا تمع الـ ذي نعيش فيه، لأننا مرتبطون بعقيدة ذات أصول ثابتة وتقليد كنسي موروث.

والأرثوذكسية بتقاليدها الروحية العميقة لا تتناسـ ـب مـ ـع الخـ ـدمات والأعمال الارتجالية في ا تمع، التي قد تتسبب في انحراف الـ ـروح الكنـ ـسية برمتها وتخرج بالتقليد عن إطاره المحدد، مما يؤدي حتماً إلى تشويه الكنيـ ـسة وتطويرها إلى أوضاع غريبة غريبة لا تتناسب مع روحانية الشعب البـ ـسيط الموروثة، علماً بأن بقاء الروحانية الشعبية على مستواها التقليدي كفيل بحـ ـد ذاته أن يصد عن الشعب وا تمع كله انحرافات المدنية وشـ ـرور الثقافـ ـات المعاصرة وبدعها الفكرية والأخلاقية.

لذلك يهمنا جدا أن ننبه كل إنسان مسيحي في الكنيسة أن يحذر كـ ـل الحذر من كل دعوة إلى التطوير والتجديد في الكنيسة أو الدين أو العقيدة أو السلوك بمعناه الاجتماعي العصري، أو بمعناه الفكري التربوي الحديث، أو بمعناه الفلسفي التجريدي.

فالتطور والتجديد في الكنيسة لا يحتمل إلا معنى واحداً لاهوتياً إنجيليـ ـاً، وهو أن ينتقل الإنسان من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، هذا هو التطوير الإلهي في أسمى معانيه وفعله وحقيقته، لأن في هذا المعنى فقـ ـط يكمن مضمون الميلاد الجديد أي الانتقال بالفعل من الموت إلى الحياة، ومن

الظلمة إلى النور، ومن الحياة حسب أركان هذا العالم، إلى حياة حسب الحق في المسيح يسوع.

ولكي نوضح خطورة هذا الأمر يكفي الرجوع إلى الصورة المحزنة والمزعجة التي آل إليها ا تمع المسيحي العصري في الغرب، لكي يرى كل إنسان هن ـ ا ويؤمن بخطورة النتائج المترتبة عل ـ ى اس ـ تحداث التط ـ ويرات والتجدي ـ دات الاجتماعية داخل الكنيسة، ولكي يعرف كل إنسان ت ـ ستهويه التجدي ـ دات الفكرية والتربوية القائمة على العلوم الحديثة، كيف أن هذه الوسائل عينها ق ـ د تسببت في ا يار التقليد المسيحي الموروث في الغرب وأخرجت جيلاً ع ـ صريا من المثقفين المتحررين، ا ردين من الروح، عادمي الإحساس الديني، مستهترين غير مكترثين بأية قيمة للأخلاق، مجدفين مدعين لا يؤمنون بالله ولا ي ـ شعرون بأية مسئولية نحو القريب ولا الشعوب الضعيفة، لهم فع ـ ل ق ـ اايين وض ـ ميره، يعبدون اللذة ويتهافتون على التوافه ويتحصنون بالإنتاج.

لذلك فالحقيقة التي ينبغي أن تظل جزءاً لا يتجزأ من إيماننا هي أن التقليد الديني الذي ورثناه، بالرغم مما فيه من بعض العيوب، إلا أنه حاجز الأم ـ ان العظيم الذي يحجز طغيان البدع العصرية والثقافات المنحلّة عن الكنيسة.

بل ويلزمنا أن نتمسك به ونشرحه ونعلّمه كجزء لا يتجزأ من ق ـ انون إيماننا، وذلك بعد أن نصفيه من الشوائب التي تخللته عبر الأجيال. وهذا ما نرجو أن نوفيه حقه في مقالات قادمة إن شاء الله ذلك.

والآن لكي نؤمن أن مجتمعنا المسيحي لا يزال بخ ـ ير نتيج ـ ة لتم ـ سكنا بالكنيسة وتقاليدها وصلوا ا، لابد أن نرجع دائماً إلى صورة ا تمع الغ ـ ربي

المسيحي، والتأمل في ما آلت إليه المُثُل الروحية واللاهوتية والأخلاقية نتيجـة تطويره حسب العلم وبوسائل العلم، سواء كان ذلك بسبب استخدام وسائل عقلية ونفسانية لشرح الإنجيل بدل تطبيقه عملياً بالروح.

لأنه بكل أسى نقول إن ا تمع المسيحي العصري في الغرب أصبح تقريباً يؤمن أن الإنسان هو سيد نفسه، وأنه مصدر إلهام ذاته، وأن الإنسان بحد ذاته كفيل أن يكون غاية نفسه، وأنه بمستطيع أن يسلّح نفسه بالأخلاق التي تنفعه بدون نعمة الله، وأن عقل الإنسان ممكن أن يحل محل الإنجيل، وأن العلم يحل محل الله، والبحوث المتقنة هي النبوة. والاتجاه الاجتماعي على وجه العمـوم (حتى في الدول التي فيها تنتهك السياسة من قيمة الإنسان الفرد وتحتقر روحه و ين ضميره وتستعبده في سبيل تخطيطا ا الكبرى) نجد أنه يمجد الإنـسان ويؤلّهه، ويعطيه في حدوده الشخصية حريته المطلقة بالرغم من أنه لا يستطيع أن يضبط نفسه، ويعطيه الحرية بدون أية مسئولية أخلاقية، لذلك استطاع أن يمزق ا نفسه ويمزق ا ضميره.

كذلك فالاتجاه الاجتماعي العام ينادي بالمساواة كنوع مـن العدالـة وبدون تحفُّظ، حتى ولو كانت ضد العدل. لذلك كانت النتيجة فقـدان ميزان التعادل الروحي على أساس استعداد الأخذ والعطاء. فالكل أصـبح يؤمن أنه في غير حاجة إلى الأخ وفي غير اضطرار للعطاء! أو على حد قول البعض: ''كلمة كهنة''!

ورحمة بالقارئ نكتفي ذا القدر.

فهل لا نخاف حينما نستخدم وسائلهم؟ وهل لا نرتعب حينما نسترشد بكتبهم؟ هل لا نصرخ في وجه من يمجد أساليبهم؟

المفارقة الشديدة بين الوسائل الروحية والوسائل الاجتماعية

إزاء هذه الخطورة التي تتربص بمجتمعنا الروحي بسبب إلحاح بعـض المثقَّفين على نقل الطرق والوسائل الغربية ومحاولة تطبيقها على مجتمعاتنـا المسيحية، نقدم بعض التوجيهات التي تكشف مقدار الفوارق الكبيرة التي تميز الوسائل المسيحية الروحية عن الوسائل الاجتماعية.

أولاً:

الكنيسة ليست عدوة للعلوم أو الثقافة المعاصرة بكل فروعها أو المدنية الحديثة بوسائلها واختراعا ا، وبالتالي هي ليست عدوة أيـضاً للأنظمـة الاجتماعية الحديثة الموجودة في العالم لأ ا بطبيعة الحال منبثقة من العلـوم والثقافة الحديثة. ولكن الكنيسة تؤمن أن العالم له علومه وأنظمته الخاصـة واجتماعياته، كما أن الكنيسة لها بناؤها الروحي وأنظمتها الخاصة وأسرار اتحادها وامتدادها.

ثانياً:

وكما أن أنظمة العالم واجتماعاته تقوم على أساس العلـوم والأرقـام والقوة والمال والسياسة والتكتلات والموارد الطبيعيـة، كـذلك أنظمـة الكنيسة تقوم على أساس حقائقها الروحية الإيمانية التي تـستمد أصـولها وكيا ا من النعمة والإلهام والمواهب غير المنظورة.

إذاً، فهناك فوارق جوهرية بين طبيعة العالم وأنظمته ووسائله، وبـين طبيعة الكنيسة وأنظمتها ووسائلها.

ومن هنا ينشأ بالضرورة أن العالم حر عن الكنيسة، والكنيسة أيضاً حرة عن العالم.

بمعنى أن التنظيم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في العالم لا يستمد كيانه من النعمة أو الإلهام أو المواهب غير المنظورة، بل يستمدها من طبيعة العلوم والثقافات والعناصر العالمية الأخرى.

وكذلك فالتنظيم الكنسي لا يستمد كيانه من الاقتصاديات والسياسة العالمية بالطبع، بل يتحتم أن يستمدها من أصول الإيمان. وهذا يحتم على الكنيسة أن تلتزم حدودها فلا تفرض سلطانا على العالم، كأن تكون مسئولة عن تدابيره الاقتصادية أو السياسية.

فالكنيسة لا تستطيع أن تتصل بالعالم اتصالاً مباشراً، وإنما هي مسئولة عنه مسئولية غير مباشرة، أي روحية بالصلاة وبث روح العبادة والتقوى والسلوك السوي، مستخدمة في ذلك وسائلها الخاصة التي تنحصر في الإيمان والنعمة والإلهام والمواهب غير المنظورة.

ثالثاً:

أنظمة العالم، وبالتالي وسائله، نافعة جدا للعالم، ولكن في نفس الوقت لا تنفع الكنيسة لأنها ليست من طبيعتها. فالرسم البياني يستطيع أن يتنبأ للدولة بواسطة الأرقام والإحصاءات عن حاجة الدولة وكفايتها بعد عشر سنوات مثلاً، لذلك يعتبر علم الإحصاء مع علم الاقتصاد والتخطيط، بالنسبة للعالم، كالنعمة والإلهام والنبوة بالنسبة للكنيسة تماماً.

وبديهي إذا حاولت الدولة الاعتماد على النعمة والإلهام والنبوة التي في

الكنيسة لبناء مستقبلها الاقتصادي وتركت علومها وإحصائيا ا، فحتم ـ اً ستفشل وتصير أضحوكة في وسط الدول الأخرى.

وبديهي أيضاً إذا حاولت الكنيسة الاعتماد على العلـ ـوم الاقتـ ـصادية والتخطيط والسياسة لبناء مستقبلها الروحي وتركت عنها الإيمان والنعمة والإلهام ومواهبها الروحية غير المنظورة، فهي طبعاً ستفشل كما فـ ـشلت كنائس الغرب، بل وتصير ضحكة لدى السماء لأ ا تركت الينبوع الحي وذهبت تحفر لنفسها آباراً مشققة لا تضبط ماءً.

رابعاً:

أنظمة العالم تقوم على ثوابت محققة. فاليوم لدى الدولة أربع وعـ ـشرون ساعة بكل دقة وتحديد، والقوة تقاس بمقياس دقيق، والوزن له ميزانه المضبوط، وكذلك كل ما يتعامل به العالم له مقاييس ثابتة مفروضة ومحتمة، وإلا يختـ ـل ميزان العالم.

أما الكنيسة فعاملا ا مع العالم تستمدها كلها من الله، وأنظمـ ـة الله لا يمكن تحديدها ولا تثبيتها. فمعروف بصورة قاطعة أن اليوم عند الله قـ ـد يساوي ألف سنة وألف سنة قد تساوي ليل أمس الذي عبر (مز ٩٠: ٤).

فكيف نحسب بعد ذلك حساب الأيام في بناء الروح ونموها؟

وكذلك فواحد مع الله قد يغلب ربوة من الرجال، وألف رجـ ـل قـ ـد يهربون جزعاً وخوفاً بدون طارد، وأظن قصة جدعون وجيش مديان مع كثير غيرها من معاملات الله مع الكنيسة يثبت هذا. فقـ ـوة الله لا يقـ ـف أمامها جيوش مجيشة ولا أسود ولا نار ولا أبواب مغلّقة.

والله يجب أن نعتمد على هذه القوة ونؤمن ا فوق كل قوة أخـرى، فكيف نخشى بعد ذلك أية قوة على الأرض؟

وفي مواضع ومواقف كثيرة لعن الله الذي يعتمد على «ذراع بـشر»، وغضب على داود لأنه أراد أن يعرف عدد شعب الله رد التباهي بقـوة شعبه؛ فكيف بعد ذلك نعتمد على عدد المؤمنين أو كثرة الشعب أو تكتل المسيحيين أو انضمام الكنائس كمصدر للقوة؟

إذاً، فليس فقط غير جائز وغير مناسب لطبيعة الكنيسة أن تـستخدم وسائل بشرية عالمية في تأثيرها على ا تمع، بل وخطر عليها جدا من جهة الله، لأن ذلك معناه أ ا تركت الله الحي ورفضت الاعتماد علـى قوتـه ونعمته وذهبت تطلب قوة ومشورة ومعونة من العالم.

كما أنه يظهر من هذه المفارقة الشديدة بين ضعف وسائل العالم بالنسبة لقوة وسائل الله، أن أنظمة الكنيسة إن هي بقيت إلهية معتمدة علـى الله ومستمدة منه القوة والنعمة والإلهام، صارت أقوى من العالم كله أضـعافاً مضاعفة. أما إذا ارتدت الكنيسة إلى أنظمة العالم، صـارت بالـضرورة وحسب المنطق جزءا صغيراً جدا من العالم يمكن قياسه بمقتضى النـسب البيانية وأرقام الإحصاء!!

تأمين الكنيسة ضد الذوبان في المجتمع

أولاً: فلنلتفت إلى قول المسيح: «لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم» (لو ١٦: ٨).

الواقع أن العالم تسلَّح بالمعرفة المنطقية والفلسفة الجدلية، وهو قادر بالفعل – لو دخلت معه الكنيسة في أي جدل على أساس المنطق – أن يغلبها ويردها خاسرة مهزومة.

وكذلك، لو حاولت الكنيسة أن تستخدم الحيلة والسياسة والخداع لكسب مواقف ضد العالم فهي حتماً ستدخل في فضيحة وخزي علني، لأن العالم إذا مسك على الكنيسة أو أي مسيحي موقفاً مخادعاً غاشاً ضد ما ينادي به إنجيله، فإنه يصرعه ويقضي عليه.

وكذلك، إذا مالت الكنيسة إلى شهوة المال والغِنى والسلطان، فقدت قوتها ضد العالم وصارت محتقرة ومرذولة.

والعكس أيضاً صحيح، إذا دخلت الكنيسة مع العالم في حوار روحي على أساس الإيمان والبر والتعفُّف، فالعالم لا يطيق أن يقف أمامها حتى ولو كان ممثلاً في ملك، فإنه حتماً يطأطئ رأسه!

وإذا ما واجهت الكنيسة العالم متسلِّحة بالحق فقط دون استخدام أي تهديد أو وعيد، ودون أن تعتمد على أية قوة إلا الله وحده واستعدادها للموت، فالعالم يفزع من الكنيسة ويسلِّم بحقِّها!

وإذا تقدمت الكنيسة لتخدم العالم بروح الله وبفقرها وعوزهـا دون أن يكون لها ما تكافئ به ودون أن تطلب ما تكافأ به، فالعالم يصغي لها ويتعلّم ويقبل ما لروح الله.

ثانياً: الذي يحفظ للكنيسة كيا ا الروحي ويؤمنها ضد الانحلال والذوبان في ا تمع هو أن تبقى روحانية بالفعل. فهذا كفيل أن يحفظ لها قوة تفاعلها مـع العالم باستمرار، لأ ا إذا لم تتفاعل مع العالم فإن مبادئها وإيما ـا وأخلاقيا ـا تتجمد أولاً على هيئة شعارات "مقدسة" وأسماء "ميتة"، ثم تصير كمجـرد صور وتماثيل وآيات مكتوبة بماء الذهب داخل متحف!

فإذا تجمدت مبادئ الكنيسة وروحيا ا، أي فقدت حيويتها بالتأثير، وكفّت عن تفاعلها في ا تمع نتيجة فقدا ا لنشاطها الروحي، فالعالم يبتدئ يطاردهـا حتى يحصرها بالفعل داخل أسوارها ويضطهدها بمكر ويقطع عنها مصدر حيا ا الجديد أو بالحري مصدر شهو ا – أي المال والغِنى والكرامة – حـتى تخـور وتخرج عن رزانتها المصطنعة وتسلّم نفسها لتضمن لنفسها الدينار والكرامة.

وهكذا فلن يوجد للكنيسة على وجه العموم أي مفر، فهي إما تبقى أمينة للمسيح حتى النهاية، وهذا يلزمها أن تؤمن به وحده وتعتمد عليه في كـل وسائلها ولا تكف عن نشاطها الروحي الداخلي كمصدر لقو ا وحيويتـها وتفاعلها المستمر مع ا تمع؛ وإما إذا هي فقدت نشاطها الروحي واعتمادها على قوة الإيمان في مواجهتها للعالم فهي حتماً تفقد شكلها الإلهي وتـذوب وتصير جهازاً من أجهزة العالم وقطاعاً من قطاعاته.

وبالنهاية، لا يوجد للكنيسة أو لأي مسيحي مـدخل لغـزو العـالم

المتحصن بالعلم ضد الروح، ولا طريقة لمناظرته، أو تخطئ ـ ة أس ـ اليبه، أو إصلاح آثاره التي تركها في ا تمعات الفقيرة المنبوذة، ولا أية وس ـ يلة إلا بالاعتماد الكلّي على الإلهام والنعمة التي أعطاها الله للكنيسة كهبة وال ـ تي يضمن عملها في الساعة الحرجة: «ها أنا معكم كل الأيام ...».

أما إذا تمشت الكنيسة مع المدنية المعاصرة خطوة واحدة واس ـ تخدمت ثقافتها واجتماعيا ـا ونفس أساليبها (أي ثقافة واجتماعي ـ ات وأس ـ اليب المدنية) لتجذب العالم إليها، فهي – مهما نجحت في بداية الطريق ب ـ سبب جهل من تتعامل معهم – إلا أ ـا في النهاية ستقف عريانة ... عريانة م ـ ن النعمة ا لتي تجاهلتها.

الفراغ المخيف الذي خلَّفته الخدمة غير الروحية

الصراع الذي يعانيه الشباب اليوم هو الإحساس القاتل بالفراغ الروحي في الجو الذي يعيش فيه، وقد اشترك في تكوين هذا الإحساس لدى الشباب عامة عدة أسباب خطيرة:

أولاً: هو ضعف القادة الروحيين الذين يقتحمون ميادين الخدمة والقيادة والكلام وهم في حالة الصفر تقريباً من جهة الإلهام والنعمة ومواهب الروح القدس، وكل الاعتماد الذي اعتمدوا هم عليه والذي اعتمد عليه الناس في تزكيتهم لتبوء مراكز القيادة والخدمة أو الكهنوت، يتوقَّف على مقدار درجاتهم العلمية ومقدار تعرفهم على النواحي الروحية إن كان بالقراءة أو الدراسة، وصار هذا هو رأس مالهم في الخدمة.

والحادث الآن أن حاجة البيئات قد استكفت تقريباً من جهة المعرفة العامة، سواء كان في الأمور الروحية أو الثقافات الدينية. فالكتب والمجلات نشرت المعرفة العامة، والمعرفة العامة بالأمور الروحية كعلوم وثقافات لا تزيد الإنسان أي شيء في الروح بل ربما تجعله – دون أن يشعر – يواجه الإحساس بالتحسر والندم واليأس لأنه عرف أشياء وسمع عن أشياء لا يملك منها شيئاً. وهنا يبدأ أول تكوين للإحساس بالفراغ تجاه حياته الخاصة حينما يقارنها بمعرفته.

وحينما يلتجئ الإنسان إلى هؤلاء القادة، يصاب بخيبة أمل أشد لأنه لا يجد عندهم ما يسند روحه!

ثانياً: انحراف المنهج الروحي الأرثوذكسي بجملته عـن أصـوله الأُولى وتقاليده الموروثة، فبدل أن كان يتجه مباشرة إلى تنشئة قديسين وأُناس أتقياء يخافون الله وشباب طاهر متقشف ورع محب للمسيح، انحرف المنهج انحرافاً خطيراً ناحية التثقيف العلمي بالكتاب المقدس، وحشو العقل بالمعرفة، وخلط الدين بالمصطلحات والمبادئ الفلسفية والتربوية.

الواقع أن المنهج الأرثوذكسي الأصيل هو الوحيد الذي يقدر أن يشبع الروح البشرية، ويجعل الإنسان يحس بوجوده الحي في الله، ويحس بوجود الله الحي في كل أمور الحياة حوله وبالأخص في الأتعاب والضيقات، حيث يمكنه باستمرار أن ينتفع من أتفه الأمور التي تجري حوله، كما يمكنـه أن يحول كل حادثة تحدث له إلى معنى روحي وكسب ونمو وفرح، إذ يجد يد الله تصنع كل شيء وتدبره لخلاصه.

أما المنهج العلمي، فبالرغم من أنه يملأ فراغ عقله، إلا أنه يعطيـه أيـة فرصة ولا أي منفذ يستطيع بواسطته أن يتحقق مـن وجـوده في الله أو وجود الله معه. فالميدان العقلي والميدان الروحي مستقلان تمام الاسـتقلال ويستحيل النفاذ من الواحد للآخر مباشرة أو بسهولة، لأن ذلك يحتاج إلى عمل النعمة المباشر، لأن النعمة هي وحدها القادرة أن تحول المعرفـة إلى روح والروح إلى معرفة.

لذلك أصبح الاعتماد الكلي في المناهج الدينية على التثقيف العقلي دون الاتجاه المباشر للعناية بالروح وتوجيهها للثبوت في المسيح حسب الأصول الآبائية وحسب الوسائل الروحية في التسليم، مصدراً من المصادر لتكوين هذا الفراغ الذي بدأ يزحف على المجتمع كله.

ثالثاً: انطباع العمل والخدمة بطابع حب الكثرة، والاهتمام بالأعداد، وبنسبة الحضور، وتركيز كل الاهتمام على الكمية والجماعة وليس على الفرد.

فكل خادم وكل كاهن وكل قائد على وجه العموم تجـ ـده يـ ـضحي بالفرد في سبيل الجماعة – على نظرية قيافا – وأعظم ما يفـ ـرح الأب أو الخادم هو كثرة الأعداد حوله؛ وطبعاً هذا يكشف روح الذاتية والاتساع وحب التعظيم في القيادة، كما يكشف عن ضعف روح البذل من أجـ ـل خلاص النفس الحقيقي. هنا نجد الخدمة في ا تمعات تنحرف انحرافاً خطيراً عن مبدأ الإنجيل الأساسي الذي جعله المسيح معياراً للقيادة الحقَّـ ـة: «أي إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده» (لو ١٥: ٤).

هذه الروح بطبيعة الحال تجعل الفرد – وخصوصاً الضعيف – يحـ ـس بضياع وجوده وسط الجماعة، وفي البداية يشعر بألمها المر على نفسه لأ ا تجعله يواجه إحساساً بالفراغ في وسط الجو الذي يعيش فيه، خصوصاً إذا كانت القيادة بعد ذلك غير مقتدرة حتى لتغذية روح الجماعة ا تمعة.

أما في النهاية فالفرد يستسلم لهذا الشعور وهو شعور الضياع وسـ ـط الجماعة، أو بمعنى آخر الذوبان في ا تمع. وهذا بحد ذاته كفيل في لحظـ ـة من اللحظات أن يهدم روح الجماعة كلها، لأن قوة الجماعة تكمـ ـن في قدرة الفرد على التعبير عن وجوده وكيانه الروحي بالتفاعل الحـ ـي مـ ـع الجماعة وعلى الجماعة.

رابعاً: وجود مفارقة صارخة بين المبادئ الروحية والمُثُل العليـ ـا الـ ـتي

ينادي ـا القادة الروحيون وبين حقيقة الواقع، سواء حقيقة الواقع بالنسبة لحياة هؤلاء القادة أنفسهم وعدم تطبيقهم الشخصي للمبادئ التي ينادون ـا، أو حقيقة الواقع بالنسبة لإمكانية الجيل الروحية فيما يختص بقـدر م على تنفيذ هذه المُثُل والمبادئ.

هذا المفارقة الصارخة التي يعيشها الشباب اليوم وخـصوصاً الـشباب الرزين المتطلع للقداسة الحقيقية والمُثُل الروحية العالية، جعلته يقع في حالة شك شديد من جهة صدق هذه المبادئ في حد ذا ـا وصدق هؤلاء القادة في تعليمهم، وجعلت العالم الروحي بالنسبة لهم يبدو عالماً من الكلمات.

خامساً: فقدان النظرة الروحية الثاقبة التي يمتاز ـا رجال الله والخـدام الملهمون في معرفة علل النفوس، وسبب انحراف أفكار الجماعة، وكشف الأسباب الروحية العميقة التي أثرت ولا تزال تـؤثّر في الـشعب. هـذه وحدها تعتبر مصيبة عظيمة لأن نتيجتها الحتمية الالتجاء إلى حلول غـير روحية وإعطاء إرشادات ليس من الله لا تنفع بل قد تزيد العطب والجفاف والانحراف الفكري.

وهذا النقص الذي أصاب القادة جعلهم يلتجئون إلى وسـائل علميـة ونفسانية، وهم غير متخصصين في هذه العلوم ومعلوما م عنها لا تزيـد عن مستوى العامة أو التلاميذ، والنتيجة أ م يعطون نصائح وإرشـادات كفيلة أن تزيد من حالة الاضطراب النفساني والعصبي مما جعل كثيراً مـن الشباب المثقّف يفقد ثقته في رجال الدين والقادة وبالتالي الكنيسة.

سادساً: انتشار المعرفة الآبائية نشرت بالتالي الوسائل النـسكية (الـتي

مارسها الآباء بشروط وتوجيهات تحت إرشاد الشيوخ وبمعونة الروح ومؤازرة النعمة وضبط النظام النسكي الجماعي) وجعلت هذه الوسائل سهلة رخيصة تحت أيدي القادة الروحيين ينصحون ويرشدون بها النفوس، دون أي اعتبار لمستوى النفس وقدراتها العصبية وإمكانياتها الروحية والنفسانية والصحية. مما أدى إلى ضحايا كثيرة وجعل الذين أخفقوا عبرة خطرة أمام الباقين كشهادة لعدم الثقة بهذه الوسائل.

سابعاً: محاولة بعض القادة استخدام وسائل غير روحية لسد الفراغ الروحي، وذلك بخلق منفعة للشباب من انتمائهم للكنيسة حتى لا يشعروا أو ينتبهوا إلى الفراغ الذي فيهم أو إلى النقص الذي في الكنيسة لإشباع حياتهم، مستخدمين في سبيل ذلك منافع رياضة جسدية أو ثقافية أو اجتماعية أو حتى نفعية مالية. كل هذا فوق أنه يستحيل أن يملأ فراغهم الروحي فهو يزيد من إحساسهم بإفلاس الكنيسة روحيا. فالكنيسة ينبغي أن يكون انطباعها في ذهن الشباب انطباعاً روحيا مقدساً: «بيتي بيت الصلاة يدعى» (مت ٢١: ١٣)، كما ينبغي أن يكون ذلك بالفعل. لأن الشباب إذا امتلأ بالصلاة وروح التقوى فسيكون هذا كفيلاً أن يتفاعل مع كافة أجواء العالم الفاسدة ويغلبها.

التجاء القادة الروحيين إلى الوسائل غير الروحية لملء "فراغ" الشباب، هو خدعة. لأنه وإن كان يسليهم مؤقتاً وإن كان يحفظهم لمدة سنة أو اثنتين، فهو كفيل بعد أن ينضج الشباب أن يجعله يحس بالفراغ الكبير الذي كان يعيشه في الكنيسة، لأنها بدل أن تعبئه بالروح القدس وتملأه بقوة الصلاة وتذيقه عشرة الحياة مع المسيح، ملأت فراغه بالمشاريع

والأعمال والخدمات التي لم تبنِ روحه على شيء.

ومهما كانت الأعذار والأسباب في استخدام هذه الوسائل والتسليات والنشاطات التي تبدو اجتماعية وجميلة، فالسبب المختفي وراءهـ ـا هـ ـو الإفلاس من روح الصلاة الحقيقية والقدرة على جذب الشباب لممارسـ ـة العبادة والتقوى بوقار المسيح ورزانة الإنجيل.

فإذا استطاعت الكنيسة أن تؤدي واجبها الروحي تماماً وكانت قادرة فعلاً لملء حياة الشباب بالصلاة والخبرة الروحية، أصبحت كافة الوسـ ـائل غـ ـير الروحية وبقية النشاطات الاجتماعية زهيدة القيمة جدا في نظـ ـر الـ ـشباب أنفسهم وربما أحجموا عنها: «لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة» (١تي ٤: ٨).

ثامناً: محاولة التعويض عن الإفلاس من النعمة وتغطية الضعف الروحي بفرض الشعارات الدينية والتحمس العصبي الكاذب لممارسـ ـة الفـ ـرائض الدينية والتقديس اللفظي الصوري للكنيسة وقديسيها وبث الغيرة المظهرية على العبادة، كل ذلك سينتهي حتماً بمواجهة فراغ خطير حينما يـ ـصطدم الشباب بالواقع، عندما يحاولون التمسك لهذه الوسـ ـائل إزاء التجـ ـارب والمخاطر، فلا تقوى أن ترفعهم ولا درجة واحدة فوق ذواتهم، فيبتـ ـدئون يصارعون قوتهم حتى يخوروا.

إذاً، فتقوى الخادم أو الكاهن وحصوله على حياة غنية بالنعمة وثمـ ـار الروح القدس هي الأساس، لذلك اشترطها الإنجيل مقدماً فـ ـيمن يتقـ ـدم للخدمة؛ والحياة التي يحياها القادة في المسيح هي الحياة التي يـ ـستطيعون أن

يهبوها للآخرين، وليس ما قاله القديس فلان عن الصلاة ولا م . ا قال . ه القديس فلان عن التقوى ولا ما قاله القديس فلان عن النعمة.

وإذا ما لم يأخذ القادة الروحيون كل يوم روحاً من الله وتجديداً ذهنيا وتغييراً عن شكلهم، فلن يكون لهم قدرة على نفخ روح الله في الجماع . ة التي يخدمو ا.

والخدام لن ينفعهم أن يكتفوا بتمسكهم وافتخارهم وتشديدهم على تقاليد الكنيسة المقدسة وطقوسها وعلومها ولاهو ا وآبائها، فهذه كلها لن تصلح بحد ذا ا أن تفيد أحداً؛ ما لم يكن لهؤلاء المسئولين شهادة من الله ومن ض . ميرهم، وتزكية من الروح القدس ومن سير م، وأخذاً حقيقيا من الله، يجعل معرفة . هم ملهمة بالنعمة لفائدة من يراهم أن يسمعهم أو يعيش بالقرب منهم.

وبالنهاية ليته يتضح لدى كل مسيحي يخدم باسم المسيح في الكنيسة أو في أي مكان، أن الشباب اليوم وكافة الناس على وجه العموم محتاجون إلى استعادة مركزهم الروحي الذي فقدوه وسط هذه الأسباب الكثيرة، ال . تي قلناها والتي لم نستطع أن نقولها.

والأمر لا يتعلّق بتعليم مبادئ ولا بإقامة مؤسسات ومشروعات، ولكن يتعلّق أولاً وقبل كل شيء بقادة روحيين مبنيين ومتأصلين عل . ى أس . اس الإنجيل والمسيح والرسل، ينمون في مخافة الرب ويمتلئون بالروح القدس قبل أن يتجرأوا على قيادة النفوس ورعايتها.

القافلة تسير والفجر لابد مشرق

بالرغم من عتمة الليل التي تعبر فيها الكنيسة إلا أ ا تسير، وإن كـ ـان ببطء وتعب كثير – والعالم المربوط ا يزحف من ورائها في تعثُّر شديد – فالكنيسة لم تتوقف أبداً، لأ ا من روح الله؛ ولكن عبئها ثقيل لذلك تبدو في سيرها وئيدة، ثقيلة العبء الذي تضطلع به ليس هو بـ ـسبب كثـ ـرة المسئوليات وضخامتها كما يبدو بخداع البصر، ولكنه ثقيل بسبب كونـ ـه روحيا خالصاً والروحيات الخالصة عزيزة في هذه الأيام. لهذا يبدو عـ ـبء الكنيسة ثقيلاً جدا.

كانت وصية الرب للتلاميذ أن يتلمذوا كل الأمم ويعلّموهم كل مـ ـا أوصاهم به ووعدهم أنه سيكون معهم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. ولكن إلى الآن، وحسب آخر إحصائية دقيقة قامت ا إحدى الهيئات العالمية، لا يزال ثلث العالم لم يسمع عن المسيح ائياً، والثلث الآخر سمع عن المسيح ولكن لم يقبل شيئاً من تعاليمه قط، والثلث الباقي آمن بالمـ ـسيح ولكـ ـن غالبيته لم يعرف بعد المسيح معرفة حقيقية.

إذاً، فوصية المسيح لتلاميذه لا تزال قائمة، وأمره يحتاج إلى تنفيذ، والنير والرسالة واقعان على أعناقنا لا مفر.

فهل من ذبائح حية تتقدم لفدية العالم؟ نقول ذبائح وليس عبقريـ ـات، نقول ذبائح تفدي بمو ا وليس بحيا ا!

فقد تكون أيها القارئ ضعيف الجسم أو مريضاً أو غير مقتدر في الكلام

ولا قادراً على الوعظ وليست لك دراية بأصول الخدمة، ورقيق الطباع حساساً أو ذا حياء خجولاً؛ هذا كله لا يدخل في كفاءة الذبيحة بل ربما يزيدها حسناً وقوة! ... لأن النار الإلهية حينما تشتعل في الذبائح، فأول ما تأكل الكفاءات والمهارات البشرية وكل تزكية العيون وفخر العقول وقوة الشكيمة وبأس الرجل (١كو ١: ٢٦-٢٩). ولا يتبقَّى في النهاية إلا «رماد عجلة» له قوة التطهير والتقديس، أي لا يتبقَّى شيء بشري قط من النفوس التي تكون قد اضطرمت بحب المسيح وماتت معه على صليب البذل ولم تعد تحمل إلا سمات المسيح في الجسد شهادة حية، وسمات المسيح جروح مميتة!

العالم اليوم يقف في حسمة البعد عن الله، وفي ورطة المدنية يمد يده ويصرخ إلى الكنيسة كما صرخ الرجل الأُوروبي المكدوني إلى بولس في الرؤيا منذ البدء: «اعبر إلى مكدونية وأعنا» (أع ١٦: ٩). ولكن يا للحزن العميق والأسى! فالكنيسة انتتف ريشها ولا تقوى على الطيران مثل بولس ذلك الطائر الخفيف الذي كان له أجنحة الروح القدس.

الدعوة إذاً هي إلى تخفيف الحمل، أن ننفض كل اهتمام دنيوي ونتخلَّص من ثقل الجسد بآماله وشهواته ونتقدم بأنفسنا، نقدمها ذبيحة الله ليلتهمها الروح القدس حتى يفنيها فنطير فوق العالم، وحينئذ نستطيع أن نجذبه إلى الله بقوة تعادل قوتنا عدة آلاف من المرات لأنها تكون قوة الروح الخالص!!

ألم يقل الله لإبراهيم علانية أن عشرة أبرار يستطيعون أن ينقذوا مدينة بأسرها من الهلاك؟ لا بأعمالهم ولا بصراخهم بل بوجودهم، بمجرد وجودهم! الذي من الممكن أن لا يحسه أو يكتشفه إنسان قط!

بل ألَم يقل الله لإرميا النبي: «طوفوا في شوارع أورشـليم وانظـروا واعرفوا وفتشوا في ساحا ا هل تجدون إنساناً أو يوجد عامـل بالعـدل طالب الحق فأصفح عنها» (إر ٥: ١)؟

أليس هذا هو معنى الفدية والذبيحة بأجلى معانيها، فواحد قد يفـدي مدينة عظيمة كأورشليم؟!

أورشليم في أيام إرميا كان فيها الهيكل العظيم، وعدة آلاف من محترفي الخدمة، وتقديم الذبائح التي لا تكف الليل والنهار، ولكن كان يعوزهـا بالرغم من ذلك إنسان واحد فقط يعمل بالعدل ويحب الحق ليصفح عنها الله وتنجو من الخراب فلم يوجد!!

العالم اليوم يصرخ طالباً فدية، كل مدينة وكل قرية تصرخ تطلب فدية.

- **يا ذبائح الله الصغيرة ارفعوا نفوسكم سرًّا للمسيح وقدِّموا حياتكم كلها له ...**
- **ابذلوها له وحده بالحب الكامل كمحرقة، حتى يكتشف فيها العالم من بعدكم نور الصليب وقوَّته وعمله ...**
- **طهارتكم وفقركم وصومكم توازن ثقل مختاري مدينة كبيرة كنينوى ...**
- **صلاتكم ترد اللعنة عن ألوف ...**
- **وموتكم عن العالم يفدي العالم ...**
- **يا ذبائح الله الصغيرة تقدَّموا ولا تحبسوا نور الفجر عن العالم.**

الفصل الثاني

في المعاملات الفردية

التي ينبغي أن يتبعها المسيحي

في علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه

المعاملات الفردية

يختص الإنجيل المعاملات الفردية بمنهج دقيق متسع، يحتار الإنسان في طوله وعرضه وعمقه وسموه.

فإذا الإنسان في تطبيق وصاياه فإنه يواجه في أصغرها عمقاً واتساعاً كأنه يواجه الإنجيل كله.

فالقول إنه ينبغي أن يبذل الإنسان نفسه من أجل أحبائه، لا يقلُّ في عمقه عن القول بأنه ينبغي أن نحب أعدائنا. وبين الاثنين صلة جوهرية وعمقهما معاً ينحدر مباشرة من وصية الرب أنه يلزم الإنسان أن ينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبع المسيح.

ولكن لو حاولنا استخلاص منهج اجتماعي للمعاملات الفردية من وصايا المسيح، فالأمر يبدو مستحيلاً، لأنه لا يمكن ترتيب الوصايا ترتيباً منطقياً نستطيع أن نصعد به من وصية لأخرى. فلا توجد وصية واحدة في الإنجيل يمكن أن نضعها قبل الأخرى. فكل آية وكل وصية هي إنجيل في حد ذاتها.

لذلك، فالإنجيل يعسر استخدامه كأداة نرتقي بها في معاملاتنا مع العالم من درجة إلى درجة. والسر في ذلك أن الإنجيل لم يوضع ليوصل الإنسان إلى مستويات اجتماعية أفضل أو ليربط البشر معاً على أساس تطبيق وصاياه تطبيقاً منطقياً متساوياً؛ بل هو يعبر عن صلة الإنسان بالله أولاً، ثم يعكس هذه الصلة على المجتمع. فالإنجيل وضِع ليوصل الإنسان بالمسيح

رأساً، والمسيح هو الذي يقود الإنسان في علاقاته مع الناس حسب الوصايا بحكمة فائقة الوصف وتدبير متقن خفي يذهل العقل، ليوصله من خلال هذه العلاقة الأرضية إلى الحياة الأبدية.

لذلك، فإن احتساب الإنسان نفسه قادراً بواسطة تطبيق الوصايا على اكتساب أخلاق طيبة أو فضائل أو سلوك حسن بين الناس، أمر يعتبر خارجاً أصلاً عن هدف الإنجيل. فالنجاح في هذا المضمار محدود وبلا أية قيمة روحية.

لأن الإنجيل لا يتعلّق ولا يختص الحياة اليومية بالوصايا إلا على أساس الحياة الأبدية من خلال عمل المسيح وقيادته! فالإنجيل يوصل إلى المسيح أولاً، والمسيح يخوض مع الإنسان في معاملاته الكثيرة المتعددة مع كافة الناس ليهذّبه بمقتضى الوصايا حتى تتهيأ الروح لميراثها الخالد في الحياة الأبدية.

لذا ندرك سر مشكلة عمق الوصايا واتساعها وتعددها واتحادها، فهي:
أولاً: ليست مجرد حياة أرضية أو مجرد علاقات فاضلة مع الناس بل هي لتهذيب الروح لبلوغ مستوى الخلود مع الله في ملكوته.

وثانياً: لأنها لم توضع على مستوى فكر الإنسان المنطقي ليفندها بمعرفته، بل وضِعت على أساس أن المسيح هو الذي سيقوم بالتوجيه والقيادة والمعونة عند التنفيذ: «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو ١٥: ٥).

إذاً، فالإنسان المسيحي لا يقف في استخدامه للإنجيل، في معاملاته مع الناس، عند حدود تكوين علاقات طيبة مع المجتمع. ولكنه ينطلق بخبراته التي يكتسبها في تفاعله المستمر مع المجتمع من مستوى أقل إلى مستوى

أعلى في الروح استعداداً للحياة الأخرى.

وهذا الانتقال والتغيير المستمر الذي يجوزه الإنسان في تفاعله مع ا تمع على أساس الإنجيل ليس كأنه شيء سلبي بالنسبة لهذا العمر، بـ ـل علـ ـى العكس، فالإنسان لا يخسر مطلقاً في خبرته الروحية مهما كان فيها مـ ـن بذل وجهد. لأن السعادة الغامرة التي يحسها الإنسان أثناء تقدمه الروحي تجعله هو الرابح على الدوام، وتسبق وتذيقه نوع الحياة الأخرى التي يجاهد من أجلها.

أما تغير الإنسان المسيحي وتجدده المستمر أثناء تفاعله مع ا تمع، فشهادة علنية للعالم.

أي أن تفاعل الإنسان المسيحي مع ا تمع على أساس وصايا الإنجيل، هو هدف أساسي للإنجيل: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس» (مت ٥: ١٦).

أي أن تحول الإنسان هو بعينه تحول ا تمع كما يشمله المعنى الـ ـسري للآية: «اجذبني وراءك فنجري» (نش ١: ٤)، لأن انجذاب إنسان واحـ ـد إلى الله يتبعه حتماً مسير الجماعة كلها بل وجريها!

ولو تتبعنا الحركات الروحية والنهضات العظمى في العالم على مـ ـدى التاريخ، سواء كانت رهبانية أو تبشيرية أو وعظية، نجد أ ا قامت كلـ ـها على أثر تحرك قلب إنسان واحد وانجذابه إلى الله بشدة.

كما أننا لو تتبعنا الأسباب والعوامل التي أشعلت قلوب الأفراد الـ ـذين قادوا الحركات الروحانية والنهضات العظمى التي غيرت معـ ـالم ا تمـ ـع البشري بأسره، نجد أن هذه الأسباب والعوامل تدور حول حقيقة واحدة

وهي احتكاك هؤلاء الأفراد با تمع الذي كانوا يعيشون فيه. ولأ م كانوا مشبعين بشحنة روحية اكتسبوها من تمسكهم العنيـ ـد بالإنجيـ ـل، صـ ـار احتكاكهم بالأوضاع السلبية سبب اندلاع النار الإلهية بكـ ـل ضِـ ـرامها وبركا ا التي لا يزال العالم كله يسير بقو ا حتى اليوم.

ونحن إذ نقدم بعض إلهامات الإنجيل بخصوص المعاملات الفردية الـ ـتي ينبغي أن ينتبه إليها الإنسان المسيحي في حياته اليومية، نقدمها كمحـ ـك نترجى منه النار.

معاملة الخُدَّام

أول إلهام يقدمه لنا الإنجيل في الأصول التي نتبعها في علاقاتنا ومعاملاتنا مع الناس، هو كسر الحواجز التقليدية التي أقامها المجتمع ضد الطبقات الحقيرة والمنبوذة، وكانت حياة المسيح تفيض بحنان وود عجيب تجاه هذه الطبقات.

أما النور الذي يلقيه الإنجيل أمامك مباشرة فهو في معاملة طبقة الخُدام. ولم يقدم المسيح في ذلك مجرد تعاليم ووصايا بل أراد أن يتبنى بنفسه قضية الخُدام ويحمل بنفسه نير الأعمال المحتقرة، فنجده ينتخب أقدس مناسبة وهي مناسبة تأسيس سر الجسد والدم اللذين للغفران والخلاص ليؤسس سر الأعمال الحقيرة، كعمل متمم للمغفرة والخلاص ممثلاً في غسل أرجل التلاميذ ومسحها.

والإنجيل في ذلك لا ينزل بالإنسان (ممَّثلاً في شخص يسوع المسيح) إلى العمل الحقير (ممَّثلاً في غسل الأرجل) بل يرتفع بالعمل الحقير إلى مستوى الله لأن المسيح بقدر ما تنازل وجعل هذا قانون الحياة الأبدية.

والمسيح لما تنازل إلى مستوى الخُدام والعبيد وأرادنا أن نمارس هذا التنازل: «كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً» (يو ١٣: ١٥)، لم يكن ينظر إلى رفع القيم الاجتماعية على الأرض ولا قصد أن يرتقي بالإنسانية إلى المُثُل الأخلاقية الطبيعية، وإنما كان يعالج مشكلة الخلاص التي أعطاها جسده ودمه بعد أن أعطاها اتضاعه وتنازله.

لأن الإنسان بقدر احتياجه لجسد المسيح ودمه للمغفرة والخلاص، هو محتاج إلى النزول والاتضاع إلى مستوى كافة الأعمال الصغيرة والحقيرة التي

جمعها المسيح ومثَّلها بغسل الأرجل. وفي ذلك إشارة سرية عجيبة إلى أن ذبيحة المسيح الكفارية لا يستحقها إلا المنسحقون! ... أي أن الخِدم الصغيرة والمحتقرة هي باب للخلاص!

والحقيقة أن هذا أمر مستغرب وقد اقشعر منه التلاميذ وخاصة بطرس، لما رأوا الرب يربط وسطه بمشفة ويصب ماء في مغسل ويجلس على الأرض ويطلب أرجلهم ليغسلها ثم ينشفها بيديه. ولكن المسيح لا يلقى تعاليمه جزافاً ولا يعمل أعمالاً إلا لتكون قانوناً روحيا لحياتنا، فقد قصد بهذا العمل أن يخط في ذهن البشرية خطاً عميقاً لا يمحى، وهو أن يكون الإنسان المسيحي مستعداً دائماً أبداً للتنازل إلى مستوى كل إنسان – مهما كان هذا الإنسان – على أن يكون هذا التنازل بالغاً حد غسل الرجلين! هذا العمل عمله ابن الله بنفسه لكي يستد كل فم وتنتفي كل حجة إزاء تعظم الناس وقيام الطبقات.

إن الإلهام الذي يقدمه الإنجيل في مَثَل غسل المسيح للأرجل بلغ حد الإعجاز في تعليم الإنسان كيف ينحني أمام أصغر وأحقر أخ في البشرية. فقد صارت صورة المسيح وهو منحني على أرجل تلاميذه يغسلها وينشفها، وينشفها باجتهاد، منطبعة انطباعاً لا يمحى على كل خادم يصادفه الإنسان وهو يجتهد في خدمة الآخرين وبالأخص في الأعمال الحقيرة! ومهما كانت الأعمال والخدمات فلن يكون فيها ما هو أصغر من الانحناء على أرجل الناس وغسلها! «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلّماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلّم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض. لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت

أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً» (يو ١٣: ١٢ - ١٥).

وفي موضع آخر يشرح الإنجيل هذا المَثَل هكذا: «**الكبير فـ يكم لـ يكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم**. لأن من هو أكبر؟ أَلَّذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم» (لو ٢٢: ٢٦و٢٧).

يكفينا أن نخرج ذا المَثَل الخطير في الحياة الاجتماعية من وجهة نظـ ر الإنجيل، لأنه كفيل أن يقلب كل مفهومات البشرية وأوضاعها ونظريا ـ ا من جهة الطبقات وأصول معاملة الخدم وتقييم الخدمات الحقيرة. ونحن هنا لا نقصد الخدمات الروحية، ولكن خدمات الجسد التي على مستوى غسل الأرجل، كخدمة غسل الملابس وتنظيف البيت وغسل الصحون ودعـ ك الحلل وشراء المأكولات وطهي الطعام ورفع الفضلات، سواء كانت هذه الخدمات داخل البيت أو خارجه، أو في محل العمل، لأن خدمـ ة غـ سل الأرجل باتضاعها المذهل تضم كافة الأعمال التي من هذا النوع.

ومن خلال يد المسيح التي غسلت قدم الإنسان، نستطيع أن نكرم كل يد تمتد لتأدية أي خدمة لنا مهما كانت حقيرة أو صغيرة.

فإذا كان كبرياؤنا يمنعنا أن ننحني أمام الذين يخدموننا إكراماً للأقنوم الإلهي الذي انحنى سابقاً ليغسل أرجلنا، فلا أقل من أن نعطي الذين يخدموننا مكانتهم اللائقة في ا تمع كأصحاب حقوق مساوية لنا تماماً، ولنختش دموعهم وأنينهم وتنهدهم لأن لهم رئيس خدم في السماء يستطيع أن يطالب بحقوقهم.

معاملة الزملاء

لكي نأتي على إلهام الإنجيل الذي ينير به الطريق أمامنا في علاقتنا مع زملاء العمل، نحتاج إلى مواجهة ثلاث مشاكل، كلٍّ على حدة:

الأولى: تختص باختلاف الأمزجة والطبائع والتربية بين الزملاء.

الثانية: تختص بتفاوت الكفاءات والمهارات والمواهب عندهم.

الثالثة: تختص بعدم الأمانة التي نكتشفها فيهم.

ولكن كمبدأ عام نستلهمه من الإنجيل قبل أن نخوض في هذه المشاكل، وهو جدير بأن نضعه أمام أعيننا باستمرار، هو أن نعتبر جو العمل كله بما فيه من زملاء طيبين وأردياء ومسئوليات خطيرة أو حقيرة وواجبات وأتعاب ومضايقات، هو جزء لا يتجزأ من خطة خلاصنا الذي يشرف عليها الرب بكل دقائقه ويستخدمه كأحد الوسائل الفعالة لتهذيب نفوسنا وقيادتها لبلوغ نضجها اللازم للعبور. وعلى ضوء هذه الحقيقة يلزمنا أن نأخذ كل الحوادث التي تجري حولنا في العمل بعين الجد والاهتمام، لأنها لا تجري جزافاً بل يحركها الله حسب قصدٍ ومشورة أزلية للخير المطلق بالنسبة لأولاده الذين سلَّموا أنفسهم لقيادته.

وعلى الإنسان المسيحي أن يعتبر كل تصرف يتصرفه إزاء العمل ومع الزملاء هو في الحقيقة يعبر عن إيمانه وخضوعه لمشيئته وطاعته لتدبيره، حاسباً بكل ثقة أنه لا يمكن أن يحدث حادث، مهما كان صغيراً أو مؤلماً أو مجحفاً له، إلا وتكون يد الله قد صاغته لتوجيه حياته وإنذاره ورفع بصيرته وتوثيق علاقته بالله.

المشكلة الأولى

اختلاف الأمزجة والطبائع والتربية:

حينما يلتفت المسيحي حوله فيجد نفسه محاطاً بمجموعة أشخاص غير منسجمين معه في شيء فلا ينزعج، لأن في هذا أول درس يلزم أن يتلقَّنه وهو: كيف يحتفظ بكيانه وسط بيئة غير ملائمة؟ وهنا يكون الإنسان بين خطرين:

الخطر الأول المجاراة السهلة، والانزلاق مع التيار، والتلون؛ وهذا معناه انهيار قدرة المحافظة على الكيان الذاتي إما بسبب ضعف المقاومة أو بسبب إغراء مرح البيئة.

أما الخطر الثاني، فهو في المقاطعة والصدود أو الهروب من المواجهة والتماس العزلة، وهذا معناه الإخفاق في القدرة على التفاعل الحي مع البيئة.

والمطلوب أن يتحاشى الإنسان المسيحي هذين الخطرين بكل قدرته وكيانه، وأن يلتجئ إلى الله.

أما الخطر الأول: وهو المجاراة السهلة، فهذا لا يمكن تحاشيه إلا بالاستقلال الداخلي، نقول الاستقلال الداخلي وليس الاستقلال الخارجي، بمعنى أن يكون للإنسان وجهات نظر خاصة في الحياة والعمل والضحك يستمدها من روح الإنجيل ويتمسك بها بكل كيانه، فلا يزيد في مجاراته للزملاء المرحين عن مجرد ابتسامة رزينة أو كلمة محبة أو مديح نافع حتى لا يجرح نفسية الزملاء، ويظل هو كما هو في أعماقه يؤمن برزانة الحياة وجدية العمل. ولا يزيد في مجاراته للزملاء المستهترين بالعمل والوقت والمسئولية عن مجرد الإصغاء من حين لآخر لحديثهم، حتى لا يجرح نفوسهم ويظل هو كما

هو في نشاطه وسرعته وإنجازاته.

هذه المعاملات الرزينة إن ظلَّت هكذا على مدى السنين فهي كفيلة أن تحتفظ بشخصية الإنسان مهابة محترمة حتى لدى أكثر الزملاء مشاكسة.

أما الخطر الثاني: وهو خطر المقاطعة والصدود والتهرب من مواجهة الزملاء والتماس العزلة عنهم، فهو كفيل أن يستثيرهم إلى المطاردة والمعاكسة والتهجم شأن كل غريزة حيوانية. هذا بالإضافة إلى أن التهرب من مواجهة المجتمع ينشئ ضموراً في شخصية الإنسان ويضيع عليه مكاسب روحية نادرة.

على الإنسان المسيحي إذاً أن يبادر بإعلان رأيه حينما يدعو الداعي إلى ذلك دون أن يخشى وجوه الناس، إنما يعلنه بمنتهى المحبة والتواضع لا كمن يعارض الزملاء في وجهة نظرهم الخاطئة وإنما كما يقول رأياً فيه خير للجميع، ويتناقش معهم بروح الوداعة محتملاً كل ثقل ويتحمل في سبيل أن يرد عليهم بكلام المحبة. ولكن عليه أن لا يمل من إعلان رأي المحبة والحق في إصرار داخلي لا يتنازل عنه قط. فإذا لم تأخذ الجماعة برأيه فهي على كل حال لن تعتبره منعزلاً، أما هو فيحتفظ بقدرته على إعلان الحق والمحبة، وهذا كفيل أن يزيد من قدرة تفاعله مع المجتمع أكثر فأكثر.

ولكن على أي حال فليثق الإنسان المسيحي أن كل شذوذ في طبائع زملائه هو دعوة من الله له لقبول شيء جديد تجاهه.

فالزميل المستبيح بالألفاظ والمستهتر بالقيم الأخلاقية، هو دعوة سرية للازدياد في وقار المسيح والإنجيل.

والزميل المشاغب الكثير الصخب، دعوة للاحتمال والصبر.

والزميل المتعاجب بذاته المترفِّع بشخصيته، دعوة للاتضاع والبساطة والإشفاق.

والزميل المتشائم القليل الصبر والعادم الثقة بالناس، دعوة لطول الأناة والرقة والبشاشة والبذل المخلص.

وهكذا يغدو جو العمل بيئة مقدسة يتناول فيها الإنسان المسيحي مواهب التغيير والتجديد، ونِعماً فائقة لا حصر لها، إن هو التصق بالله وجعل صدره متسعاً للجميع وقلبه محبا لهم بالحق وروحه عاطفة مشفقة على المتعبين منهم.

وسر القدرة على ملائمة الإنسان المسيحي للبيئات يستمده من استعداده للبذل واستهانته بالتضحية وقبوله للإهانة بفرح، بعكس الإنسان الاجتماعي الذي يكيف نفسه للمجتمع بالمماراة من أجل كسب المواقف وربح الكرامات.

المشكلة الثانية

مشكلة تفاوت الكفاءات والمهارات والمواهب:

مفروض أن كل نعمة أو كفاءة ينالها الإنسان أفضل من الآخرين أنها تثير في أقرب النفوس إليه نوعاً من الغيرة والحسد والحقد أحياناً حتى ولو كانوا إخوته، فقصة يوسف وحسد إخوته الذي بلغ إلى درجة أن تآمروا عليه لقتله وأخيراً باعوه عبداً، قصة تكشف عوار البشرية بشدة، ويلزمنا أن نضعها نصب أعيننا حتى لا نستكثر غيرة الزملاء وحسدهم وحقدهم ومؤامراتهم. فإن كان بنو أُمي وأبي يحسدونني ويبيعونني، فكم يكون الغرباء؟ والمعروف أن المسيحي حائز على نعمة داخلية تجعله مصدر حقد حتى من الشياطين ...

ولابد أن يدفع ثمنها باهظاً يوماً من الأيام.

ولكن علينا أن نرى في غيرة الناس وحسدهم صورة إيجابية تـ ـدفعنا إلى العطاء والبذل واحتمال نقص الآخرين، لأن رحمة الله علينا ومؤازرته لنـ ـا تعادل خذلان الناس ونكرا ـم مائة ضعف.

ولكن الصورة التعليمية التي يسوقها لنا الله من تقلُّب الزملاء وحقدهم وتعديا ـم تتركز بشدة في اختبار مدى تمسكنا بنعمة الله ومدى أمانتنا لها، الذي يظهر واضحاً في احتمال التعديات والخسارات بشكر.

ويوسف لما قَبِلَ أن يباع عبداً وارتضى باحتمال نقمة إخوته، نال نعمة في عيني الله عوضته عن الخسارة الشيء الكثير جدا.

كما يلزم الإنسان المسيحي أن يربط دائماً النعمة أو العطية التي خـ ـصه الله ـا وبين نتائجها المحتومة من حسد وحقد وتعديات، لأن هذا الارتباط كفيل أن يدخل الله في الوسط لأنه هو الذي وهب، فهو المسئول ضـ ـمناً عن نتائج مواهبه.

وهنا يصبح موقف الإنسان المسيحي من الحاسدين والحاقدين غاية في الدقة والخطورة، لأن أي شعور بالعداوة أو الحقد يتدافع في قلب الإنسان المـ ـسيحي من نحو زملائه المسيئين إليه، كفيل أن يلاشي استحقاق الإنـ ـسان المـ ـسيحي للنعمة أو العطية أو الموهبة التي خصه الله ـا، لأن استحقاق الإنسان لنعمـ ـة الله رهن لاحتماله ما ينتج عنها وتسليمه الكلّي الله ليتصرف في حياة من أنعم عليه.

أما إذا تصرف الإنسان المسيحي كما يتصرف غيره مـ ـن النـ ـاس دون أن يحسب حساب مسئوليته عن النعمة والموهبة التي فيه، ودون أن يحسب حساب

االله الذي هو سبب لهذه النعمة، فاالله يتخلَّى عنه، وتصبح النعمة التي فيه حفنـة تراب من المواهب الأرضية الزائلة. ومهما استعاد من حقوق وتغلَّب وانتـصر وساد فهو يبقى أنقص من كافة الناس لأنه سيتشعر دائماً أنه قد فقـد مـصر كماله ونعمته: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكْملُ» (٢كو ١٢: ٩).

إذاً، فالأحقاد التي يواجهها الإنسان المسيحي في ميدان عمله نتيجة لتفوقه في نوع من المواهب يكون قد خصه االله ـا، هي في الواقع محك شديد لأمانته االله ولاستحقاقه لهذه الموهبة، وهي بمثابة اختبار مستمر تجوزه النفس بتدبير االله لكي تتـزكى في هذه الأمانة القليلة وهذه الموهبة الصغيرة، استعداداً للأمانة العظمى والمواهب الفائقة.

وهذا الاحتكاك الذي تلازمه الأتعاب والمضايقات والخسارات، لو جـازه الإنسان المسيحي ـدوء وصبر وشكر، فهو كفيل أن يمنح الإنسان سلاماً داخلياً وإحساساً بنصرة فائقة تجعله يسمو فوق زعازع الحياة كلها بثقة في االله لا تحد، ويكون سلوكه هذا كفيل أن يرغم لا الزملاء الحاقدين فقط بـل والـشياطين أيضاً أن يعترفوا بالنعمة التي في هذا الإنسان ويكرِموا إيمانه باالله.

المشكلة الثالثة

عدم الأمانة بين الزملاء:

عدم الأمانة وما يتبعها من سرقة وتـزوير ورشوة وخيانات بالنوع المادي أو المعنوي أو السياسي، وما يترتب عن ذلك من أضرار جـسيمة بالدولـة أو العمل أو بالمواطنين، أمر مستبعد ـائياً على ضمير المـسيحي ولا نـستطيع أن نفترض حدوثه. ولكن يلزمنا أن نفرق بين ''عدم الأمانة'' كما يفرضها علينـا

الضمير المسيحي من جهة الروحيات والسلوك الروحي حسب الإنجيل، وبين "عدم الأمانة" كما ينص عليها دستور العمل وتحددها قوانين المصلحة أو المؤسسة بوجه خاص وقوانين الدولة بوجه عام.

وبهذا الصدد علينا أن نعرف أن الأمانة في هذا العمل أو ذاك ليست شيئاً مستمداً من الإنجيل ولا هي متروكة لضمير كل إنسان ليقدرها حسب قياسه في الروح والنعمة؛ إنما تتحكَّم فيها لوائح العمل وأصوله وتعليماته وقوانينه، لذلك يلزم تدارسها بدقة والالتزام بها في حدودها المعقولة.

كما أنه ليس للإنسان المسيحي أن يفرض سلطان ضميره فوق حدود القانون فيتشكك في سلوك زميل، أو يعطِّل مسير العمل ويضر بالمصلحة العامة، وهو ليس لديه إثبات مادي من القانون يسند هذا الشك. ليس معنى هذا أن نتعامى عن عدم أمانة الزملاء فنتورط معهم في عدم أمانتهم، ولكن علينا أن نتخذ كل احتياط قانوني حتى نتقي أية مسئولية تقع علينا، بل أن نلتزم نحن الأمانة المطلقة في حدود اختصاصنا دون أن نتتبع أمانات الغير طالما هي ليست تحت مسئوليتنا.

ولكن موقف الإنسان المسيحي من "عدم الأمانة" العامة في وسط الزملاء لا يقف عند الحد السلبي الذي فيه يتقي الإنسان المسئولية والضرر فقط؛ بل يتعدى ذلك إلى موقف إيجابي لا بد منه وهو تحمل مسئولية الأمانة وما يترتب عنها في مثل هذا الجو الذي توده عدم الأمانة، لأن هنا تنشأ بالضرورة مفارقة واضحة كاشفة تكشف عن غير قصد كل تلاعب وعدم أمانة، ونتيجة ذلك أن يصبح وجود الإنسان المسيحي – مجرد وجوده – أمراً غير محتمل، وغير مرغوب فيه بالمرة، وفي الحال ستنشأ المقاومة الخفية التي قد تبلغ الوشاية أو

الشكاية أو حتى التهديد العلني، وعلى الإنسان المسيحي أن يركب هذا الموقف الصعب ولا يتهرب من خطورته بل يثبت على أمانته حتى النهاية، لأن القضية تصبح قضية إيمان بالله وتسليم مطلق للعدل الإلهي.

هنا تظهر قيمة الإنسان المسيحي في العمل، بل هنا تظهر قيمة العمل في إعلان الإيمان المسيحي والشهادة له بالدموع والقلق والإهانة والخسارة والتشريد في أقصى بلاد الصعيد.

لذا يتحول العمل إلى مجال حي خصب يستغله الإنسان المسيحي ليمارس نداء البذل والتضحية والفدية، ليس عن شخص معين، ولكن عن الطبيعة البشرية الساقطة التي يمثلها هذا الزميل الخائن وبالتالي كافة الخطاة.

هذه المعاناة الخطرة البليغة في أثرها ونتائجها لا يمكن أن تمر جزافاً أمام الله، فهي محسوبة جزءًا حيا فعالاً في خطة خلاص النفس وتأهيلها للشركة في ذبيحة المسيح عن العالم.

إذاً، فالعمل يبدو مجالاً لخلاص النفس ونموها وتأصلها في العلاقة بالله على أساس واقعي منظور، لو انتبهت النفس إليه.

أما الإلهام الذي يقدمه لك الإنجيل بصدد الزملاء الأردياء فهو اختيار الرب ليهوذا ليكون ضمن تلاميذه واحتماله لسرقته وخيانته ونقل أخباره، والمسيح راضٍ عن ذلك، والتلاميذ أيضاً، مع أنه كان في مقدورهم أن ينحوه عن زمالتهم بكل سهولة منذ البدء، ولكن لا التلاميذ تشكوا منه، ولا الرب حاول أن يتخلَّص منه، هذا لم يعمله الرب وهو لا يريد أن تعمله لكي تحمل الصليب الذي حمله وتعبر خلفه.

معاملة الرؤساء

أما من حيث واجبات الطاعة والخضوع للرؤساء الشرفاء المستنيرين فهذا أمر مفروغ منه، ولكن الصعوبة تبدو قاسية جدا على النفس المسيحية حينما تواجه رؤساء غير أمناء غير شرفاء غير مستنيرين.

لذلك يلزمنا جدا منذ بداية حياتنا أن نضع أمام أعيننا أن المسيحي حتماً سيواجه في العالم نفس الظروف التي عبرها المسيح والتلاميذ وكافة الذين جاهدوا بالروح كملوا في الإيمان طبقاً لما حدده الرب: «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو ١٦: ٣٣)، «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم» (يو ١٥: ٢٠)، «لا تخافوا ...» (مت ١٤: ٢٧)، «لا تهتموا ...» (مت ٦: ٢٥)، «أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٣). ولكن الحقيقة أن أحرج ساعات الإيمان هي التي يقف فيها الإنسان أمام الرؤساء الظالمين الحاقدين غير المستنيرين سواء كانوا من طبقة الفريسيين الذين يصطادون بالكلمة، أو طبقة حنان وقيافا الملفقين للتهم وشهود الزور، أو طبقة هيرودس وبيلاطس القساة الخائفين على مراكزهم، أو طبقة نيرون ودقلديانوس المستبدين بحكم سلطانهم، أو طبقة الحاكم بأمر الله ا انين الذين ألقتهم مجريات الأمور على كراسي الحكم.

مثل هذه الساعات الحرجة التي يدعى إليها الإنسان المسيحي تعتبر لدى الذين يطلبون ملكوت الله وبره من أخطر مراحل حياتهم لأن فيها يتقرر مصير أكاليلهم. فهي في الحقيقة ليست ساعات محسوبة ضمن دوسيه خدمة الموظف بتقاريرها السرية ا حفة الظالمة، ولا هي تحسب أيضاً ضمن ساعات ار هذا العمر القصير؛ بل هي لحظات من الأبدية تنفتح على الإنسان لينال فيها

ملا يمكن أن يناله في مائة سنة جهاد وصلاة وصوم!

فلينتبه إذاً كل إنسان مسيحي لهذه المواقف الحرجة لأ ا وإن كانـ ت حسب الظاهر أوقات حزن واضطراب وقلق إلا أ ا حسب الله والإيمـ ان والحياة الأبدية هي ساعة خلاص وزمان بركة، سواء قصرت أم طالـ ت، يحسب فيها بعد أن يكمل الإنسان آلامه ويوفي حقـ وق إيمانـ ه دون أن يجزع من شدة القتال أو يرهب النضال - يحسب مع الشهداء الصغار.

وعلى مدى التجربة التي يجوزها المسيحي وهو ينوء تحت ثقلها بتعليم يوماً فيوماً كيف يواجه الشدة بوجه مبتسم، وكيف يضبط قلبه في يد الله حتى لا يدق دقَّة واحدة خارجاً عن نغمة الإيمان، وكيف يسلّم المستقبل لِمَن يستطيع أن يكشفه ويدبره، وكيف يحول الألم إلى شكر ثم إلى سرور. وأخيراً يكتشف الإنسان مقدار ما اكتسبه روحيا من هذه التجارب فينذهل حينما يـ صل إلى القرار الأخير: «لأنه قد وهِب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أن تتألَّموا لأجله» (في ١: ٢٩). وكأنما لم يكن مستطاعاً أن يتقدم الإنـ سان في حياته الروحية ذه القوة وهذه السرعة وهذا العمـ ق إلا عـ ن طريـ ق الألم والمعاناة والمظالم ا حفة المثيرة للنفس والذهن. فلا يسع الإنسان إزاء هـ ذه الحقيقة المدهشة إلا أن يبتسم ويبتسم دائماً وبالأخص كلما اشتد الظلـ م أو الإجحاف أو الألم: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجـ ارب متنوعة» (يع ١: ٢).

- المسيحي الذي يطلب الحياة الأبدية ويشتاق إلى النمو في الروح والتقدم في الإيمان، عليه أن لا يجزع من الرؤساء الظالمين لأن هذا هو البـ اب الضيق الذي انفتح أمامه، فلا يفر منه ولا يحاول أن يغلقه بيديه أو بمكره

أو بماله لأنه يكون كمن يقفل باب الحياة الأبدية. أو كمن يلقي سلاح الإيمان والنعمة بمجرد إعلان الحرب.

- الرؤساء الظالمون العتاة لا يستطيعون أن يسيئوا إليك؛ لا تخـ ـف، ولا ترتعب لئلا تسقط روحك فيك وتغرق من الـ ـوهم في لجـ ـة اليـ ـأس الكاذب. هم على العكس رسل موفدون من قبل الله ليكملوا إيمانـ ـك ويثبتوا رجاءك ويفكوا روحك من الأمان الكاذب الـ ـذي يربطـ ـك بالأرض، وهم جاءوا إليك في الميعاد المحدد من الله لتنال على أيـ ـديهم إكليل الشهادة الصغيرة، هم مساعدون لك على الـ ـصلاة ووجهـ ـم الجافي وقلبهم القاسي ولسا ـم الجـ ـارح أدوات تـ ـستخدمها النعمـ ـة لاستمرار دموعك، هم مرسلون ليذكروك بميعاد الحياة الأبدية وجاءوا يطالبونك بالثمن فادفعه مسروراً لئلا يؤخذ إكليلك ويعطَى لغيرك.

- هم رسل تنغيص لنفسك وعوامل لا ـدأ حتى تجعل مسرات الدنيا كلها سوداء مقرفة لروحك، أرسلهم الله في الميعاد الحسن حتى لا تغـ ـرق في ملذات الأرض وأفراحها وتنام في أرض الأعداء فيسرق الزمن نصيبك وتنسى إلهك و ـمل منـ ـزلك السمائي الذي أعده لك المسيح!

- أيها المسيحي الذي تطلب ملكوت الله وبره، لا تخش الرؤساء الظالمين أو المحابين ولا تحقد عليهم إذا أغفلوا حقك وابتلعوا نصيبك ورفضوا دعواك وافتروا على حقك وداسوا اسمك، لأ ـم ليس من أنفسهم عملوا هذا ولا هو سلطا ـم الذي أهلهم أن يمتدوا ويؤذوا نفسك! الله هو الذي أعطاهم هذا السلطان من فوق من عنده كما أعطاه لبيلاطس الـ ـشرير الجبـ ـان. بيلاطس لم يكن مستطيعاً فقط أن يصدر حكماً على المسيح بالـ ـصليب

لأنه حاكم وحسب بل لأن السماء وافقت ولم تمانع! واختارته دون غيره لأنه ظالم وشرير فهو أهل لذلك ... «لهذا أقمتك»!

- وبولس الرسول لم يجلَد ولم يسجن مرات عديدة حتى المـ ـوت، ولم تقطَع رأسه صدفة أو على سبيل الحظ العاثر أو ـرد ظلم الرؤساء؛ ولكن لأن العناية الإلهية كانت تستخدم آلامه لتقوية روحه وإعلان إيمانه، وكانت تستزيدها وتجمعها كل يوم ذخراً للبشرية ليتقوى ـا جيل آتٍ وكان هو – إذ يعلم ـذا – يفتخر بآلامه حاسباً أ ـا قادرة أن تكملً ما نقص من شدائد المسيح!

- أيها المسيحي الذي يشاء أن يكـ ـون شـ ـريكاً للمـ ـسيح والرسـ ـل والقديسين افرحوا حينما ينفتح عليك هذا الباب، لأ ـا دعوة تؤهلك لامتلاك الصليب وهبة ثمينة سوف تربطك بذبيحة الفداء إلى الأبد.

معاملة الأصدقاء والأحباء والإخوة

ليست الأخلاق الطيبة والسلوك الفاضل ورِقَّة المعاملة وأدب الحديث والفضائل الاجتماعية في مجموعها أهدافاً للطريق الضيق الذي دعا إليه المسيح، ولكن هذه كلها تأتي تباعاً دون عناء كثير خلف من ينظر نفسه ويسير حاملاً الصليب.

الهدف الأول والأخير للإنسان المسيحي في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته بالأصدقاء والأحباء والإخوة، هو أن يجعل الحياة بينهم ومعهم مجالاً لإعلان الإيمان ونموه بواسطة تطبيق وصايا المسيح: بالمحبة الباذلة وبالتسامح والاحتمال وبالصبر والوداعة وبتذوق التضحيات والنمو في إنكار الذات لتقوية الروح.

ومجال الأصدقاء والأحباء والإخوة أهدأ ميدان يمكن أن تمارس فيه وصايا المسيح وخاصة إنكار الذات.

وأخطر ما في هذا المجال هو تحوله إلى ميدان لإشباع العاطفة والاستمتاع بالمودة وتلذيذ النفس بالاحترامات وعبارات المحبة والمديح وتبادل الهدايا والضيقات والموائد: «إن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم؟» (لو ٦: ٣٢).

ومجال الصداقة ومحبة الإخوة مجال إلهي لتقوية الروح وتبادل خبرات الإيمان للتعزية: «لنتعزى بينكم بالإيمان الذي فينا جميعاً إيمانكم وإيماني» (رو ١: ١٢). ليس هو مجال لتطبيب النفس وراحة الجسد والمزاج، ولكنه فرصة للاشتراك في أعمال البذل والخدمة والمعونة والمجاملة التي لا تطلب المكافأة أو العوض.

لذلك فمفهوم الصداقة والمحبة الأخوية بالمعنى الاجتماعي غيره تماماً في المعنى الروحي المسيحي، فالأول مجال استعراض الكفـاءات والبطـولات والتسلية والمرح وتضخيم الذات بكثرة المديح والإطراء والتكريم وتبـادل المـاملات، أما الثاني فعكسه لأن المسيحي الصادق والمخلـص للمـسيح ووصاياه يرفض كل هذه الصفات والمعاني والأعمال، فهو يطلب ويسعى جاهداً لإنكار ذاته ولا يتعزى قط إلا بما ينجح في بذله وتقديمه للمـسيح، فمجال الصداقة عنده مجال عطاء وتنازل وفدية: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣).

إلهام الإنجيل لنا بخصوص معاملة الأصدقاء والأحباء والإخوة عالٍ جدا، لأنه يرفع العلاقة التي تربطنا بهم إلى مستوى علاقة المسيح بتلاميذه: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو ١٥: ١٢).

والمعروف أن المسيح أحب تلاميذه قبل أن يحبوه، فكان هـو البـادئ بالمحبة، وكانت محبته غير متأثِّرة بضعفاتهم ولا كانت مدفوعة قط بعوامـل نفعية أو جسدية.

ومن هذه الصفة الهامة "صفة المبادرة بحب الإخوة" دون أن يكـون فيهم دوافع تدفعنا لهذا الحب بل تكون الدوافع نابعة من قلوبنا نحن، يصير كافة الناس صالحين لمحبتنا.

وعندما نرفع مستوى حبنا إلى الدرجة التي نحس فيها أن حبنا أصـبح نابعاً من أنفسنا وليس متعلّقاً باستحقاق الآخرين أو عـدم اسـتحقاقهم، نصبح قادرين أن نحب بفيض غزير وبدون محاباة للوجوه!

كذلك معروف أن المسيح أحب تلاميذه حبا هادفاً نحو غاية هامة، لولاها ما قام هذا الحب ولا كان ممكناً أن يموت المسيح من أجل هذا الحب. هـ ـذه الغاية أعلنها المسيح بوضوح كامل: «ليكونوا ... واحداً فينا» (يو ١٧: ٢١).

أي أن هدف هذا الحب الإلهي العجيب هو الوصول إلى ''وحدة معنا'' التي تمت فعلاً بموت المسيح كعمل من أعمال المحبة!

ولكن العجيب والمدهش أن الوحدة التي هي الهدف الذي قامت من أجله محبة المسيح لنا، هي هي نفس الأصل الذي منه كان يستمد حبه لنا. فالوحدة الكائنة بين المسيح والآب هي أصل محبته لنا وهي غاية محبته لنا. لذلك يقـ ـول المسيح: «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا» (يو ١٥: ٩).

لذلك يتبين لنا أن دوافع محبتنا للإخوة يلزم أيضاً أن نـ ـستمدها مـ ـن وحدتنا بالمسيح حتى يكون حبنا لهم مثمراً لوحدة حقيقية. فإن كان حبنا للإخوة هو بدافع محبتنا ووحدتنا في المسيح كانت غاية هذه المحبة هي بلا شك وحدة كاملة في المسيح ومثمرة بأعمال البذل.

وبالنهاية تكون غاية الصداقة وحدة في المسيح تنمو وتثبت بالبذل.

فإذا لم تثمر الصداقة هذه الوحدة أو عجزت هذه الصداقة عن تحمـ ـل البذل والتضحية في سبيل هذه الوحدة، تكون هذه الصداقة غير مسيحية، ويكون السر في فشلها هو أ ا لم تكو مستمدة من حبنـ ـا ووحـ ـدتنا في المسيح وعلاجها يكون بالرجوع إلى عشرتنا الخاصة مع المسيح وتفتـ ـيش حياتنا الداخلية لتقوية روابط الحب مع المسيح أولاً.

ومعلوم أن الحياة إذا كانت غنية بمحبة المسيح ومتحدة فعلاً بمشيئته لابد

أن تنشئ حبا للآخرين وبالتالي تنشئ وحدة معهم.

أي أن كل إنسان مسيحي حقا لابد أن يكون محبا للآخرين ولابد أن يثمر حبه "**وحدة**" معهم في المسيح.

ولكي تكون الصداقة ومحبة الإخوة مبنية على محبة مسيحية وذات قوة على تكوين وحدة حقيقية روحية، نحاول أن نضع أمام القارئ الـ صفات التي تميز المحبة القادرة على تكوين وحدة في المسيح، عن ما عـ داها مـ ن أنواع المحبة القاصرة عن بلوغ هذا الهدف الأساسي:

أولاً: أن يكون المسيحي هو البادئ بالحب دائماً لأن نـ شاط المحبـ ة المسيحية قاهر سباق.

ثانياً: أن تظل المحبة مستمرة متأججة دون أن تتوقف ومهما قابلها من صعاب وعقبات فهي لا دأ ولا تعجز عن اكتشاف أسـ باب جديـ دة تدفعها على الاستمرار بالرغم من العقبات، حتى ولو بلغت هذه العقبـ ات في اليوم سبع مرات سبعين مرة على حد قول المسيح.

ثالثاً: أ ا تفترض مقدماً ضعف الطبيعة البشرية في الأصدقاء وتضع في حسا ا نكسات الحماس والغيرة والإخلاص وحتى الأمانة. وهذا الافتراض لا يستلزم أي جهد لأنه مستمد من طبيعة المحبة الحارة الملتهبة التي أحبنا ا المسيح على أساس هذا الافتراض عينه.

رابعاً: أنه تكون دائماً مستعدة تلقائياً أن تشترك في نقائص الآخـ رين وتحمل نتائج ضعفا م. وهذا أيضاً لا يأتي بصعوبة أو تغصب، بل بالعكس يكون بتلهف وفرح، لأن طبيعة المحبة نفسها فيها هذا الاحتمال: «احملـ وا

بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح» (غل ٦: ٢).

خامساً: أ ا تكون عميقة في غناها وعطائها وبذلها – وليست سطحية بمثابة سد خانات – لأن مصدرها غني جدا وعميق، فلا تكتفي بإظه ار الم شاعر والألفاظ والابتسامات ولكنها مستعدة أن تعطي دائماً آخر ما عندها، وآخر ما عندها هو بذل النفس الذي يحتمل التعب والمرض والحرمان حتى الموت.

سادساً: أثقل ما عليها أن تكافأ، عوض بذلها، بشيء مادي أو رب ح جسداني كمديح أو تكريم أو هدية أو خدمة تعويضية.

ولأن هذه المحبة إلهية في طبيعتها فهي تجزع جزعاً مرعباً أليماً من ''الأجرة'' أو على حسب وصف بولس الرسول: «خير لي أن أموت من أن يعطّل أحد د فخري» (١كو ٩: ١٥)، حيث فخر الإنسان هو بذله الحر ا اني كما أن فخر المسيح هو الصليب! وهذه المحبة تجزع من المكافأة حتى الروحية لأن إحساسها العميق هو أن «الضرورة موضوعة علي» (١كو ٩: ١٦).

سابعاً: هذه المحبة لا تجيز لنفسها أن تسلب الآخرين أي مجد أو كفاءة أو موهبة؛ بل على العكس تحاول أن تستزيدها لهم بالقلب وال ضمير قب ل أن يكون باللفظ. لذلك يستحيل على هذه المحبة الحسد أو الغيرة أو الانتقاص من أعمال الآخرين أو من صفا م الطيبة حتى ولو كانوا غير متفقين معاً في المبدأ أو الفكر: «هؤلاء عن تحزب ينادون بالمسيح لا عن إخلاص ظ انين أ م يضيفون إلى وثُقي ضيقاً. وأولئك عن محبة عالمين أني موضوع لحماية الإنجيل. فماذا؟ غير أنه على كل وجه سواء كان بعلّة أم بحق ينادى بالمسيح ذا أ ا أفرح بل سأفرح أيضاً» (في ١: ١٦ – ١٨).

والسبب في أن هذه المحبة لا تحسد أبداً ولا تغار ولا تستنقص من الآخرين، هو أن طبيعة هذه المحبة الأصلية هي التجميع وليس التفريق. فقوتها النابعة منها هي وحدة الآب بالابن، وغايتها وحدة الناس في المسيح، وعملها المستمر هو رفع الفوارق والحواجز والخصوصيات والتحزبات وكافة العوائق التي تقف ضد الوحدة في المسيح. كما في عرف هذه المحبة أن أية نعمة أو موهبة تعطى لأي إنسان هي أصلاً لحساب الجماعة وهي لتقوية الوحدة وتعميق طبيعتها. لذلك لا تنظر إلى أية موهبة أنها شخصية بل هي [illegible]د الوحدة في المسيح. فالانتقاص من مواهب الآخرين هو انتقاص من الوحدة.

ثامناً: هذه المحبة لا تتعثَّر بسبب ما يصيبها من الآلام أو الخسارة أو الإهانات، وذلك يكون طبيعياً وليس اصطناعاً أو تغصباً أو تدريباً، لأن الآلام والإهانات والخسارات هي الشيء الوحيد الذي يزكي هذه المحبة ويلهبها لأن فيه يحس الإنسان المسيحي أنه يبذل والبذل غير الاختياري هو أثمن أنواع التضحيات لأنه بمثابة طلب أو أمر إلهي خارج عن مشيئة الإنسان: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك» (تك ٢٢: ٢). هنا مزيج من الحزن والفرح ومن الألم المبرح والسعادة التي بلا حدود. بذل النفس هو على هذا المستوى، فالإنسان تكون الدموع في عينيه وشدة الطعنة في جنبه تكاد تفقده وعيه وهو بالرغم من ذلك لا يزال يحب ويتلاطف ويقبل اليد التي جرحته! وكلما اقترب الإنسان في آلامه من الصليب كلما اكتشف قوة الحب وسرت فيه كالنار! «اغفر لهم»!

تاسعاً: هذا الحب يبلغ أقصى قوته عندما ينفصل عن العواطف البشرية

والمشجعات الأرضية وحتى المكافآت الروحية، وذلك حينما يرتفع الإنسان بحبه فوق روابط اللحم والدم وفوق أُلفة الأمزجة والأفكار والطبائع، فـ لا يعود الإنسان يستمده إلا من فوق: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢).